نداء إقبال

مؤتمر إقبال بدمشق

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

نداء إقبال

مؤتمر إقبال بدمشق

لعام ١٩٨٥م

نداء إقبال

مؤتمر إقبال بدمشق
لعام ١٩٨٥م

دار الفكر

الكتاب ٧٣٣
الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٦ م

سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس **Tx FKR 411745 Sy**

الصف التصويري : على أجهزة C.T.T. السويسرية
الإفشاء (أوفست) : في المطبعة العلمية بدمشق

مقدمة

سيادة توحيد أحمد
المستشار الثقافي لجمهورية باكستان الإسلامية بدمشق

يقول القرآن الكريم : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ واحدةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] ومكابدة هذا النوع من الوحدة البيولوجية المتضمنة في هذه الآية يحتاج إلى طريقة أقلّ صنفاً من الناحية الفسيولوجية ، وأكثر ملاءمة من الناحية النفسية لهذا الطراز من العقل الواقعي ، فإن حددنا مثل هذه الطريقة تصبح الحاجة إلى وضع المعرفة الدينية في صورة علمية أمراً طبيعياً .

« تجديد التفكير الديني في الإسلام ، تأليف محمد إقبال »

لقد أعد حكيم الأمة الدكتور محمد إقبال (١٨٧٧ ـ ١٩٣٨ م) نفسه لهذه المهمة بالضبط ، وهي في إعادة اكتشاف منابع المعرفة ومصادر تميز الفكر الإسلامي التي وصلت مرحلة القحط خلال القرون الخمس الماضية . فقد واجه الإسلام عند ولادته ، وكان ديناً بسيطاً ، وثورياً ، أعتى الإمبراطوريات ، وأكبر الطغاة .

وفي نفس الوقت حرر الإسلام العقل الإنساني من القيود السقراطية التي ادعت بأن أفضل طريقة لدراسة الإنسان هو الإنسان وذلك بتعليم الإنسان بأنه يعتبر جزءاً من النظام الخلاق ، الذي يشتمل على الجماد والنبات والحيوان والكواكب . وقد تم أيضاً رفض كل القيود الفكرية المتأصلة في فكرة أرسطو القائلة بوجود (علم ثابت) أو (فضاء مطلق) في (المذهب الذري) لديمقراطوس ، وكذلك رفضت سفسطائيات ومغالطات أفلاطون .

يؤكد إقبال بأنه طبقاً لتعاليم القرآن نجد الكون ديناميكياً في أصله ، وبأنه متناهٍ وقادر على الازدياد . وهذه النظرة الحديثة التي توصل إليها كبار العلماء

والمفكرون الغربيون في هذا القرن فقط ، هذه النظرة قام الإسلام بتعليمها ونشرها منذ ١٤٠٠ عام . وقد أدركت العقول الكبيرة في القرون الأولى من الإسلام ضعف الفلسفة اليونانية ، وناضلت من أجل أفكار علمية أصبحت بعد قرون عديدة من بديهيات العلوم المعاصرة . وبإعادة اكتشاف الحيوية الفلسفية والمصداقية العلمية للمعتقدات الإسلامية وصياغتها في المصطلحات المعاصرة ، يكون إقبال قد فتح آفاقاً لا حدود لها للمسلمين اليوم من أجل مشاركة فعالة في عملية التطور الفكري المثيرة والقابلة للتحدي ، وفي التقدم العلمي والاقتصادي التي تعتبر جميعها في النهاية تعبيراً عن شكر الإنسان لخالقه .

وقد عمل إقبال من خلال أعماله على تحريك عملية النهوض الفكري ، وعلى تحرير المسلمين من حالة الركود الطويلة التي ألمت بهم ، وعلى التحدث لهم عن تراثهم المجيد محاولاً تبيان الطريق أمامهم لاستعادة عزتهم الثقافية وشخصيتهم الدولية ، ولهذا كانت رسالة إقبال ومهمته عالمية .

يشعر مسلمو جنوب شبه القارة الآسيوية بالامتنان والشكر لإقبال ، لأنه أوضح إليهم الوسيلة للتخلص من نير الاستعمار . فقد شرح لهم أولاً ضرورة خلق دولة خاصة بالمسلمين في شبه القارة الآسيوية . وقام برسم خطة العمل للقائد الأعظم محمد علي جناح لقيادة (حركة التحرير) التي أدت إلى تأسيس جمهورية الباكستان الإسلامية في عام ١٩٤٧ م .

واحتفالاً بذكرى ميلاد إقبال ، قامت السفارة الباكستانية في دمشق ، وبالتعاون المخلص مع وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية السورية بتنظيم ندوة فكرية مدتها ثلاثة أيام في مكتبة الأسد الوطنية خلال الفترة الواقعة مابين ٩ ـ ١١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٥ م . وكان تجاوب العلماء والمفكرين والأساتذة والطلبة والجمهور غامراً . والاحتفال بحد ذاته كان

نجاحاً عظيماً ، فقد غص مدرج المكتبة بالحضور طيلة فترة الندوة ، وهذا ما يؤكد الشعبية الكبيرة للشاعر ، ويؤكد أيضاً ارتباط رسالته العميق بزمننا المعاصر وبكل الأجواء .

إن إقبال ، بحق ، هو الشاعر الوطني للباكستان ، حيث ندعوه بشاعر الشرق ، إلا أن إقبال ينتمي إلى كل العالم الإسلامي والثالث . فقد كان يوجه أحاديثه بشكل متكرر إلى الأمة العربية ، مذكراً العرب بأمجادهم الثقافية الغابرة وبمسؤوليتهم التاريخية لقيادة الطريق من أجل إرساء دعائم نظام عالمي إسلامي .

ومن دواعي سرورنا في السفارة الباكستانية أن نقدم هذه المحاضرات القيمة والمدائح الشعرية التي قدمها المفكرون المهتمون بإقبال في مدينة دمشق ، ذلك الصرح الخالد للثقافة والعلوم . ونأمل أن تعمل هذه المحاضرات على خلق اهتمام أكثر وأكبر لدى القراء ليأخذوا العبر من رسالة إقبال القوية .

وتشكل هذه المحاضرات (قوس قزح) من الآراء . فقد ألقى سيادة سفير الباكستان في سوريا السيد آياز أحمد خان الكلمة الافتتاحية المليئة بالدفء ، والتي تتحدث عن أهمية إقبال بالنسبة للعالمين الإسلامي والعربي ، وللعالم الثالث . وألقى السيد نبيل تللو من مكتبة الأسد الوطنية كلمة تحدث فيها عن سيرة وحياة حكيم الأمة .

وهنالك محاضرة الدكتور اليافي حول المكانة الرفيعة لإقبال في الثقافة الإسلامية ، وكذلك محاضرة السيد ملوحي دفاعاً عن إقبال كرجل عمل وليس صوفياً . ثم تأتي محاضرة الدكتور أسعد علي عن مكانة المرأة لدى إقبال ، ومحاضرة الدكتور علي حسون حول (إقبال الإنسان الكامل) ، ومحاضرة الدكتور البوطي عن عظمة إقبال ، ومحاضرة العلامة أفكاري عن أفكار إقبال على ضوء الفلسفة

الغربية ، ومحاضرة الأستاذ صادق آئينه وند حول الرسالة الخالدة لشعر إقبال في اللغة الفارسية .

وبالإضافة إلى هذه المجموعة المتألقة من الأعمال ، أعطى الدكتور إحسان حقي ، وهو صديق ورفيق لإقبال ، لمسة شخصية دافئة وودية عندما تحدث عن لقاءاته مع شاعر الشرق في لاهور ، قبل أكثر من خمسين سنة . كانت الرسالة الإجمالية لهذه الندوة تتعلق بكون إقبال أعظم المفكرين الذين أنتجهم العالم الإسلامي في القرن العشرين ، وهو من أشد العقول عمقاً مما قدمته الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية . وسيبقى (نداء إقبال) إسهاماً أبدياً ، على صغره ، في دراسات إقبال في اللغة العربية .

وفي الختام ، أود أن أوجه شكري للدكاترة والأساتذة : عبد الكريم اليافي ، عبد المعين الملوحي ، أسعد علي ، علي حسون ، محمد سعيد رمضان البوطي ، العلامة سلطان أفكاري ، صادق آئينه وند (المستشار الثقافي الإيراني في دمشق) ، إحسان حقي ، لما قدموه من محاضرات قيمة ، ولتشجيعهم وتعاونهم من أجل عقد هذه الندوة .

وأود أن أقدم امتناني وشكري الخاص إلى : الأستاذ عبد الرحيم الحصني ، الدكتور رمضان صاوي من جامعة طهران ، والأستاذ نذير الحسامي ، والسيد مصطفى البدوي ، لمدائحهم الشعرية الملهمه لإقبال .

هذا ، وتأمل السفارة أن تصبح هذه الندوة بمناسبة ذكرى إقبال ، حدثاً سنوياً تطبع محاضراته بشكل كتاب في كل سنة . وبهذا تصبح منصة دائمة وقوية لمناقشة وفهم الدكتور محمد إقبال ، ليس فقط في الجمهورية العربية السورية ، لكن ، ولكون دمشق المركز الرئيسي للثقافة والعلوم العربية ، لتمتد إلى كل

أرجاء الوطن العربي والأمة العربية التي كانت تتبوأ مركزاً هاماً وعزيزاً في قلب إقبال .

ليمنحنا الله العزيز القدير رحمته الواسعة ، والشجاعة والقوة لنتقبل رسالة إقبال ، ولنتأمل فيها ثم نعمل بها .

كلمة ترحيب

كل إنسان يموت ، وهذا هو حق الحياة على الإنسان ، ولكن ليس كل إنسان يخلد ، ومن الناس من تنطوي ذكراهم مع آخر قبضة تراب تنثر على قبورهم ، ومن الناس من تستمر ذكراهم حية خالدة في ذهن الأجيال المتعاقبة ، ومن هؤلاء الأخيار فقيد الإسلام الشاعر والفيلسوف الباكستاني الدكتور (محمد إقبال) الذي نجتمع ضمن هذه القاعة للاحتفال بذكرى مرور مئة وثماني سنوات على ميلاده رحمه الله . ذلك الإنسان الذي سطعت شعلته باشتعال من حب الله عز وجل ورسوله الكريم ، وتجوهرت ذاتيتها ، فصحت ونطقت بالحكمة الربانية سريرتها ، فأضاءت سبيل المعرفة عندما انكشفت لها الأسرار ،ونطقت بأجمل المعاني ، من وراء حجب الغيب والأستار . فكان نطقها كلام الروح الذي تدركه القلوب بلا حواجز من لغة ولا حدود ، فهذا القلب ينبض بالحق ويحيا باليقين ، لأن الوجدان قد أرهف ، والروح قد شغلت ، فكان تاجه من تاج عزة الإسلام ، دين الفطرة السليمة . هذا الدين الذي يقيّض الله عز وجل له رجالاً من أهله وهبهم الله نفحة من نفحاته وروحاً من روحانيته ، فيشتعل القلب ، وتنطق الجوارح ، لأنها حُمِّلت من القبس الإلهي أثراً ، فتنزع الصدر ، وتندفع الحياة الإنسانية مستضيئة بشعلة الحق تشق عنان الفضاء .

نشأ محمد نور (والد إقبال) وترعرع بين أحضان الطبيعة المعطاء عند سفوح تلال جامو على الحدد الهندية الباكستانية حالياً ، في بيئة متدينة مارس أبناؤها التجارة . وشب الأب على التقى والورع ، وبدوره أرضع لبانه لابنه الصغير

ـ محمد إقبال ، فكان المربي الحق ، والزارع الـذي أحسن الغرس ، فنبت لـه نبـاتـاً طيباً بإذن الله .

هــذا المتّصـوف التقي ، يرقب ابنــه مرة وهــو يقرأ القرآن . فقــال لــه : « يابني ، إن أردت أن تقرأ القرآن ، فاقرأه كأنه أنزل عليك » .

أمـا أمـه فكانت من التـدين والـورع ، تتحرج أن تصرف من راتب زوجهـا الموظف ، خوفاً من مالٍ حرام قـد يكون قـد اختلـط مع مـال زوجهـا من زملاء العمل . قال عنها ابنها البار : كانت حياتك صفحـة مـذهبـة في كتـاب الكون ، وكانت قدوة الدين والدنيا .

توفي محمد نور والد محمد إقبال في عام ١٩٣٠ م بعد أن عمر طويلاً ، وقـد رأى بأم عينه ، النبتة التي رعاها فسيلة ، والثمرة التي غرسها طيبة ، وقـد فـاح أريجهـا العطر في الآفاق . كيف لا ، فالبيت بيت التدين والإصلاح والصلاح ، تلقى فيه الطفل الموهوب مبادئ العلم القويم والإيمان السليم على يدي والـده . وبـدأ يحفـظ القرآن منذ نعومة أظافره ، فحفظ معظمه عن ظهر قلب ، وبإمعان وتـدبر . تعلم محمد إقبـال في مـدرسـة البعثـة الاسكوتيـة في سيـالكوت ، وتلقى الإسلام واللغـة العربية واللغة الفارسية وازدادت معارفه ، ونظم الشعر . وبعد أن فرغ إقبـال من دراسته في هذه المدرسة ، انتقل إلى مدينة لاهور ، واستمر ينهل من ينابيع العلم ، حتى نال درجة البكالوريوس بتفوق عام ١٨٩٧ م ، ثم حصل على الدرجة الأعلى . وتفرغ إقبـال بعـد تحصيل العلم للتـدريس في الكليـة الحكـوميـة في لاهـور ، وفي الكلية الشرقية حيث عهد إليه بتدريس التاريخ والفلسفـة لسعـة اطلاعـه وغزارة علمه وحسن خلقه . وخلال العشر سنوات التي قضاها هناك ذاع صيته في أوسـاط الأدب ، ونشرت الصحف قصائده ، التي أنشد أولها في الحفل السنوي لجماعـة حمـاة الإسلام في لاهور عـام ١٨٩٩ م ، وكانت بعنوان : (إنني يتيم) . وتلاهـا قصـائـد

أخرى منها همالايا ، كما نشر له أول كتاب باللغة الأردية يبحث في شؤون الاقتصاد .

انتقل إقبال بعد ذلك إلى انكلترا والتحق بجامعة كمبريدج ليدرس الفلسفة ، وبعد نيله درجة في الأخلاق ، انتقل إلى ألمانيا ودرس اللغة الألمانية ، وانتسب إلى جامعة ميونيخ ، وقدم أطروحة موضوعها : تطور ماوراء الطبيعة في بلاد فارس ، كانت كتاباً في الفلسفة عرَّف الأوربيين بمقدرته وسعة اطلاعه على ماأبهم لديهم بصدد الملامح الصوفية الإسلامية .

لم يُفتن إقبال ببريق الحضارة الأوربية اللامعة ، ولم تعصف به الملذات ، ولم ينحدر هابطاً إلى حضيض المفاسد التي كثيراً ما يتعرض لها الشباب غير المتمكنين في مثل سنه . فما أودعه الله سبحانه في قلبه من قوة العقيدة ، وما وهبه من رصانة العقل ، والمقدرة الفائقة في تمييز الخبيث من الطيب ، جعله يكتشف بسرعة ما تعاني أوربا منه من أمراضٍ اجتماعية خلفها الشرود عن منهج الله .

وهكذا وبدافع من تفكيره الدّؤوب ، في الحالة التي وصلت إليها أمة الإسلام ، وبما تتخبط به أوربا روحياً من الظلمة ، ألقى عدة محاضرات هنا وهناك ، ناقداً تلك الحضارة ، ومما قاله في إحداها : ياساكني ديار الغرب ليست أرض الله حانوتاً . إن الذي توهمتموه ذهباً خالصاً ، سترونه زائفاً ، وإن حضارتكم ستطعن نفسها بخنجرها ، إن العش الذي يُبنى على غصنٍ دقيق لا يثبت .

في عام ١٩٠٨ م عاد إقبال إلى أرض الوطن ، ومارس مهنة المحاماة ، واستمر يعمل بنجاح كمحامٍ بارع حتى أقعده المرض عن أداء واجباتها عام ١٩٣٤ م . ولم تشغله أعماله الشعرية ولا تأملاته الفلسفية طيلة هذه المدة عن القيام بواجبه المهني خير قيام . وعمل مدرساً للفلسفة والأدب العربي والإنكليزي في نفس المعهد الذي

تخرج منه ، وقام بعدة جولات في الهند بناءً على الدعوات الكثيرة الموجهة له من المؤسسات المختلفة ، فكان ينتقل من مدينة إلى أخرى ، ويعتلي منبر الخطابة ، ويبث الدعوة التي آمن بها ، والفكرة التي اقتنع بصحتها ، ويلقي المحاضرات العلمية في المعاهد ودور العلم .

فاز إقبال عام ١٩٢٦ م فوزاً ساحقاً في انتخابات الجمعية التشريعية عن البنجاب ، وعمل مع حزب الرابطة الإسلامية ، وألقى في عام ١٩٣٠ م خطبة قوية عزز من خلالها فلسفته وآراءه بأن تكون في الهند أمتان منفصلتان ، وفنَّد آراء المعارضين ، وانتقد الرابطة القومية ، وتكلم عن مقومات الأمة . وعندما تحدث في المؤتمر الإسلامي العام الذي عقد عام ١٩٣٢ م ، كرر هجومه على النزعة القومية ، فكان أول من دعا إلى تقسيم الهند لاستحالة التعايش بين المسلمين والهندوس ، واشترك في مؤتمر المائدة المستديرة في لندن عام ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ م من أجل وضع دستور جديد للهند ، وانتخب عام ١٩٣٥ م رئيساً لفرع الرابطة الإسلامية في البنجاب .

كان إقبال يعاني منذ عام ١٩٣٥ م من بحةٍ في صوته ، ولم تفلح جهود الأطباء في شفائه القاطع . ثم تكاثرت عليه العلل ، كالتهاب الحنجرة والربو وآفات القلب وداء الزرقاء الذي كاد يفقده بصره . وفي شهر نيسان من عام ١٩٣٨ م أحس بدنو أجله ، ولم يكن هياباً ولا خائفاً ، وكان يقول مردداً باللغة العربية هذا البيت :

آية المؤمن أن يلقى الردى   باسم الثغر سروراً ورضا

وأسلم الروح لبارئها مساء العشرين من نيسان ١٩٣٨ م وعلى شفتيه ابتسامة دونما معاناة من سكرات الموت ، وهو في حالة من الوعي الكامل ، وبلغ رحمه الله من العمر خمسة وستين عاماً ونيف ، وترك ابنين وابنة ، وأخاً وثلاث أخوات .

رحمة الله عليك يا محمد إقبال ، فقد كنت نجماً كبيراً في عالمنا الإسلامي ، خصوصاً في سماء الفكر الإسلامي الهندي الفارسي ، لقه كنت فيلسوفاً وشاعراً فوق العادة ، وكان موتك خسارة قومية كبيرة أحزن جميع المسلمين في العالم . وصدق من قال عنه : إن إقبالاً قد وضع المصباح على باب المسلم ، ولم يحجب نوره عن غير المسلمين ، بل أمكن للجميع أن يستضيئوا بنور ذلك المصباح .

أيها الإخوة الحضور ، أيها الأخوات الفاضلات ، أرحب بكم مرة ثانية أجمل ترحيب في مكتبة الأسد ، وأتمنى لحفلكم هذا طيب الإقامة وتمام النجاح وبلوغ الهدف .

افتتاحية

سيادة آياز أحمد خان
سفير جمهورية باكستان الإسلامية بدمشق

سيداتي سادتي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يُشَرِّفُنِي أَنْ أَقِفَ اليوم لأُقَدِّمَ أطيبَ تحيَّاتي وتَمنّياتي ، باسمي وباسم أعْضَاءِ السفارة الباكستانية ، إلى جميع السادة الحاضرين . كما يُسْعِدُني أن أَشكُرَ الحُكومةَ السورية التي أَتاحَتْ هذهِ الفُرصَة ، وقَدَّمَتْ التَسهيلات اللاَّزمة لنا ، مُنَوِّهاً بما بَينَ بَلَدَيْنا وشَعْبَينَا مُنذُ أَقْدَمِ العُصُور ، حتى اليومْ مِنْ علاَقَاتٍ أَخَوِيَّةٍ وتاريخية . وأَنْتَهِزُ هذه المناسَبة أيضاً لأُقَدِّمَ تَحيَّاتي الحَارَّة إلى سِيادَةَ الرئيس حافظ الأسد رئيسِ الجُمهوريةِ العربيَّةِ السوريةِ . وأُؤكِّدُ أَنَّ الباكستانَ حُكومةً وشَعباً لَتَدْعِمُ المواقِفَ السوريَّةَ الشُجاعَةَ في ظِلِّ القيادَةِ الحكيمةِ ، في التصدّي لِكُلِّ الاعتداءَاتِ الأمبرِيالية والصَهْيُونِيَّة في المِنْطَقَة ، ولِكُلِّ مطامِع الهيمنَةِ عليها .

ولَقَدْ اِجتَمَعْنَا هُنا اليومَ ، لِلاحتفالِ بذكرى مُرورِ مئةٍ وثمانيةِ أَعوامٍ ، على ميلادِ ، شاعِرِ المشرقْ ، والفيلَسُوفْ الإسلامي الكبير ، العَلاَّمَة الباكستاني ، الدُكتور مُحمد إقبالْ . وهو في الحَقيقة غَنيٌّ عَنِ التعريف ، ومَهْمَا طَالَ الكَلاَمُ عَنهُ فَلَنْ أَتمكَّنَ مِن إيفائِهِ حقّه ، وأُحَاوِلُ أَن أَعرِضَ لَمْحَةً سَرِيعَةً عَنْ نَظْرَةِ العَلاَّمة إقبال إلى الأمَّة الإسلاميةِ :

كَانَ مُحمد إقبال ، كَكُلِّ الفَلاسِفَةِ والمفكِّرينْ ، كثيرَ التَفْكِير قَلِيلَ

الكَلامْ . وَكَانَ سُكُوتَهُ وُقوداً لِمَا يَخْتَلِجُ في نَفْسِهِ ، مِن أُمورٍ ينفُثُهَا شِعْراً وحِكَماً . وكان أمْرُ المسلِمينَ وَوضعهم ، شُغْلَهُ الشَاغِل . يُعَذِّبُهُ وَيُؤلِمُهُ ، وقَدْ أدْرَكَ بِثَاقِبِ رأيِهِ وبُعْدِ نَظَرِهِ الخَطَرَ الَّذي يُهَدِّدُ مُسْلمي الهِنْد . فَأيْقَظَ المسلِمينَ ، وإلى جانِبِ شُهْرَتِه في الفَلْسَفَةِ والشِعْرِ اشتَهَرَ بالدَورِ السياسي المؤثِّر ، الذي قَامَ بِهِ في جَنوبِ شِبْهِ القَارَّةِ الآسيويَّةِ . إذْ انْتَهى إلى تَجْسيدِ بَاكِستانَ كَدولَةٍ مُنْفَصِلَةٍ ومُسْتَقِلَّةٍ في المِنْطَقَةِ . ولَقَدْ نَاضَلَ مَعَ قَادَةِ المسلمينَ دَوْماً . مِنْ أَجْلِ هَويَّتِهِمْ الصَحيحَةَ ، والمنَاشَدَةِ في تَخَلُّصِ جَمَاعَتِهِمْ مِنْ الدُخَلاَءَ ، ومِنَ التَسَلُّلاَتِ الغَربيَّةِ .

لَقَدْ خَدَمَ العَلاَّمَةُ بَلَدَهُ ، عَنْ طَرِيقِ الشِعْرِ والعِلمِ ، وعَن طَريقِ المحَامَاة والسياسَةْ ، إذْ اسْتَطَاعَ بِمَا تَوَفَّرَ لَهُ مِنْ شُهْرَةٍ وَاسِعَةٍ كأَديبٍ كبيرٍ ، ومُثَّقفٍ واسِعَ الأُفُقْ . أَنْ يَتبوَّأَ مَرْكَزَ القِيادةِ لمرِيْديه ، وَكَانَ يَشْغُلُ بالَهُ اهْتِمَامُهُ بالقَضايا العَربيَّةِ والإسلامية . فَقَدْ كانَ حُلْمُهُ أَنْ يَرى العَالَمَ الإسلاميَّ في أَوجِ العَظَمَةِ ، كَما كَانَ في السابِقْ . ولِنَسْتَمِعْ إليهِ في إحدى قَصائِدِهِ مفتخراً بالأُمَّةِ العربية :

أُمَّةَ الصَحَراءِ يَا شَعْبَ الخُلود مَنْ سِواكُم حلَّ أَغلالَ الوَرى ؟
أَيُّ داعٍ قَبْلَكُمْ في ذَا الوُجود صَاحَ : لا كِسْرى هُنَا لا قَيْصَرَا

وكَانَ طَبيعياً أَنْ يُعْنى العَلاَّمَةَ إقبال بِشَأنِ فِلَسطينَ ، في شِعْرِهِ ونَثْرِهِ ، وقَدْ قَالَ في بَعضِ قَصائِدِهِ : إنَّ تقسيمَ فِلسطينَ يَنْطوي على جُورٍ وظُلمٍ ، ونادى الأُمَّةَ الإسلاميَّة ، بِأَنْ تَقُومَ بِدَورِها المناسِبْ ، لإفْهَامِ الدُوَلِ عَامَّةً وإنجلْتَراَ خاصّةً أنَّ قَضيَّةَ فِلسطِينَ ، لَيْسَتْ قَضيَّةَ فِئَةٍ ولا مُقاطعَةٍ بَل هي قَضيَّةُ العَرَبِ والعَالَمِ الإسلامي بِأَسْرِهِ ، في كُلِّ مَكانٍ في الدُنْيا . وإذا كَانَ لِليهودِ أَنْ يَتَحدَّثوا عَنْ أَرضٍ لَهُم في فِلسطِينَ ، فلِماذا لا يُطَالِبُ العَربُ بِوَطَنِ أَجْدادِهِم في إسبانيا والأندلس . وقَد ظَلَّ إقبالُ يُجاهِدُ في مُحارَبَةِ الاستِغلالْ وتَسلُّطِ الاستِعْمار على

المسلمينْ كما أَنَّـهُ دَعَـا إلى رَفْعِ شـأنِ الإنسـان ، وتَحرير شَخْصيَّتِـهِ مِنْ كُلّ مـا يَضُرُ بِنُمُوِّها وانطِـلاقِها وإبْـداعِها . ونَـدَّدَ بـاقْتِتـال المسلمينَ فيما بَينَهُمْ وتَفرُّقِ كَلِمَتِهِمْ وأَعْلَنَ بِشَجاعَةٍ أَنَّهُ لا كِفاحَ إلاَّ ضِدَّ الاِسْتِعْمَارِ الَّذي يُسَيطِرُ عَلَيْهِم ويمتصُ خَيراتِهِمْ ويَسْحقُ حُرِّياتِهِمْ . وقد قال إقبال :

ورَفَـعَ الـذكْرَ لِلْمُختـارِ رَفـعٌ   لقدْركَ نَحو غـايـات الكمـال

وكانَ العَلاَّمَـةُ إقبـال ، يُقَرِّرُ ، لا بـدافِـعِ التَعَصُّبِ الَّـذي حَـارَبَـهُ ، إنَّ كُـلَّ مَانَشْهَدُهُ اليومَ مِنْ تَقَدّمِ العُلومِ وتَطَوّرِ الأَفكارِ لَمْ يَكُنْ إلاَّ تَرْجُمَةً صَادِقَـةً لِكِفَـاحِ العَرَبِ المسلمينَ العلميّ فِي الماضِي ، وتَعْبيراً عن أَحلامِهِمْ . وإنَّ المكتبـاتِ الكُبرى في عَواصِمَ أَوربـا إِنَّهَـا هِي أوعيَّـة ، لِما سَطَّرُوهُ مِنْ تُرَاثٍ ضَخْمٍ في مُخْتَلَفِ العُلـومِ والمعارِفِ ، وقد أَفادَ مِنْهَا الغَربُ وبَنى عليها نَهْضَتَهُ ، ويَشْهَدُ العَالَمُ بما كانَ لِجهودِ العَرَبِ المسلمين ، مِنْ آثـارٍ لِعُلمـائِهم ، في أَرجـاء الـوَطَن العَربِيّ ، مِنَ الخَليـجِ إلى المحيـطِ ، ومِنْ شـاطئ الأَطْلَسِيِّ إلى مَـا وراءِ كَـاشْغَر ، إلى أَرضِ الصين ، وإلى كلِّ مَكانْ ، مِنْ الدُنْيا سارَتْ عَلَيْهِ أَقْدَامَهُمْ ...

والسلامُ عَليكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وبَركَاتُهْ .

في ذكرى الشاعر الخالد
محمّد إقبال

الأستاذ عبد الرحيم الحصني

الأستاذ عبد الرحيم الحصني

● ولد الأستاذ عبد الرحيم الحصني ابن عبد القادر عام ١٩٢٩ م في حمص .

● أتم دروسه الابتدائية والثانوية في حمص ، وتابع دراساته الجامعية وتخرج من الشريعة الإسلامية .

● بدأ يكتب الشعر في مقتبل عمره وطبع له عدداً من أشهر دواوينه في سوريا ، وله أبحاث أدبية مختلفة ومنها : « أمواج » .

● عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق .

● قد شارك في مؤتمرات وندوات عديدة في داخل وخارج القطر العربي السوري ، ويحمل أوسمة أدبية من بلغاريا ، وألقى عدداً من المحاضرات عن محمد إقبال في مختلف المؤتمرات .

في ذكرى الشاعر الخالد
محمد إقبال

بحبكَ يشدو الأمس واليوم والغد ... فأي سناءٍ من مجاليك أُنشد
لزمتك منذ الفجر فجرِ تَلهّفي ... إلى الشعر ، والإعجابُ يرغي ويزبد
ومن لي بألحان يوفيك نشرها ... من الحسن والإحسان ما كنت تَرفدِ
يحاول شعري أنْ يفيك فتنْثني ... قوافيه خجلى من علاك فتخمد
أحار وعندي للبيان مناسكٌ ... يحجّ إليها الفكر ، والسِّحر يسجد
علام يضيق الوحي عمّا أرومه ... متى كان دوني معبر الشعر يوصد ؟
وما أنا إلا صادح أينما انطوت ... جناحاه في حضن الرياض يغرد
على كل غصن من أغانيَّ نايةٌ ... وفي كل دوح من صداي تنهد
لئن بتّ في نجواي أستبعد المدى ... فمن هيبة الإكبار هذا التقيد

☆ ☆ ☆

فيا شاعراً إيمانه وبيانه ... رفيقان في قلب إلى المجد ينهد
بلوت ثقافات الشعوب فلم تجد ... مزيداً على ما أنت ترمي وتنشد
أبعد كتاب الله يُبسط مرجع ... يُحلّ على فحواه سرٌّ معقَّد
حملت هموم المتعبين ، وشملُهم ... شتيت بأرجاء الحياة مبدّد
وآثرت للدارين درباً نهجته ... فكان سبيلاً سالكاً حيث تقصد
وأعليت بالإيمان صوتاً نذرته ... لرفع بناء الحق فيما تشيِّد

وأعرضت في مسراك عن كل بـدعـة | إلى الـذل تفضي والخنـوع تمهّـد
وبـاركت عـزم القـائـد الأعظم الـذي | بـإنشـاء بـاكستـان كانت لـه اليـد
ومـا زلت في سـاح الجهـاد منـاضـلاً | إلى أن أعـدت الحـق والعـود أحمـد
وللفكر مـا للسيف من حـدّة الشبـا | بميـدان ردِّ الضيم حين يجرّد
ترام أعـالي الخلـد من مـوقـع الهـدى | وليس كمثـل الفكر للخلـد مِصعـد
وربَّ لسـان فـاق لمـح بيـانـه | على ضعفـه ، مـانـال سهم مسـدّد

☆ ☆ ☆

ألا أيهـا الشـادي وقيثـارة المنى | بكفيـه بـاسم الله والشعب تنشـد
أينسـاك شعب كنت أنت لسـانـه | وقـد بـات في ظـل من الرغـد يسعد
معـاذ الـوفـا ، لا ينكر الشمسَ مبصر | وعينـاه في فيض من النـور تشهـد
وهـا هم بنـوك اليـوم مـازال حبهم | بكل ترانيم الـوفـاء يجـدّد
إذا ذكروا إقبـال شَعَّت صـدورهم | وقـاراً وإجـلالاً لمن كان يرشـد
فـأنت الـذي بـالشعر أيقظت أمـة | من البـؤس . كانت بـالأسى المر تجهد
ويـا زاهـداً بـالمـال . والنصر همُّـه | وإن قليـلاً من يعفُّ ويـزهـد
ستعتز بـاكستـان بـاسمـك نـاشراً | من الـوعي والعرفـان مـاليس يجحد
ستعتز بـاكستـان بـاسمـك ثـائراً | يقـوم على نجـواه شعب ويقعـد
ستعتز بـاكستـان بـاسمـك شـاعراً | قـوافيـه في سمـع المـلايين شرَّد

☆ ☆ ☆

ويا من سكبت الشعر للمجد صافياً | وفي كل حرف من معـانيـك سـؤدد
نحيِّـك ممن مجـدوا الفكر واحـدُ | ولكنّـه في سـدّة الشعر أوحـد
فخـذ من صميم القلب حبـاً مـؤبـداً | وأسمى معـاني الحب حب مـؤبّـد
لـك الخلـد والإكبـار في هـذه الـدّنـا | ثنـاء ، وفي الأخرى من الصـدق مقعـد

محمد إقبال

فيلسوف الذات وشاعر العشق

الدكتور عبد الكريم اليافي

الدكتور عبد الكريم اليافي

● وُلد الدكتور عبد الكريم اليافي عام ١٩١٩ م في حمص ، حيث حصل معارفه الأولى في مدارسها الرسمية ، وأخذ عن مشايخها علوم الآلات كالنحو والمنطق والبلاغة والتفسير .

● بعد حيازته البكالوريا السورية ، القسم الثاني عام ١٩٣٥ م (وكان الأول في سوريا) وفوزه في مسابقة الدولة لدراسة العلوم الطبيعية في فرنسا (صيف ١٩٣٦ م) ، أوفد إلى فرنسا لدراسة العلوم .

● نال من جامعة السوربون في باريس إجازة في العلوم الطبيعية (١٩٤٠ م) وإجازة ثانية في الآداب (١٩٤١ م) وخمس شهادات عليا في الفلسفة والاجتماع (١٩٤٢ ـ ١٩٤٤ م) ثم دكتوراه في الفلسفة (١٩٤٥ م) عاد بعدها مباشرة إلى سوريا .

● سُمي أستاذاً مساعداً في الجامعة السورية (١٩٤٧ م) ، ثم أستاذاً لكرسي علم الاجتماع (١٩٦١ م) وعَمِلَ من قبل الأمم المتحدة خبيراً أول في معهد العلوم الاجتماعية بالجامعة اللبنانية ، (١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ م) ، ثم في المعهد العربي للتدريب والبحوث الإحصائية ببغداد (١٩٧٩ ـ ١٩٨١ م) .

● أستاذ في قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في كلية الآداب بجامعة دمشق منذ ١٩٨١ م .

● عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، وعضو مؤسس لاتحاد الكتاب العربي السوريين (١٩٦٩ م) .

● رئيس تحرير مجلة (التراث العربي) .

● له ثلاثة عشر مؤلَفاً في الأدب العربي ، وفي الاجتماع ، والفلسفة ، وعلم السكان ، وفلسفة العلوم ، وعلم النفس ؛ من أبرزها (المعجم الديمغرافي) (مع الدكتور الشافعي) ، و (معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية) .

محمد إقبال
فيلسوف الذات وشاعر العشق

المرء حيث يضع نفسه :

حكمة بليغة من أوابد حكم العرب . ندرك بها كيف نشعر بنصيب من الرفعة والسمو حين نتدارس حياة عظيم من العظماء ، وكيف نكرَم أنفسنا حين نكرم ذكراه . ومع الشعور بالتكريم والسمو والرفعة نرى الدنيا مرة جديدة أكرم وأجمل مما نظن إذ جادت بأولئك العظماء وهيأت لنا معايشة ذكراهم وتأمل أعمالهم وأفكارهم . وهكذا يسعدنا أن نتحدث عن الذكرى التاسعة بعد المئة لميلاد شاعر الشرق محمد إقبال .

ولد محمد إقبال سنة ١٨٧٧ م في سيلكوت لأسرة كشميرية الأصل برهمية المحتد ، أسلمت قبل عدة قرون في زمن السلطان زين الدين إلياس بودشاه . ثم هاجرت إلى البنجاب ذات الطبيعة الفاتنة . رجا أبواه التقيّان الشيخ نور محمد والسيدة إمام بيبي أن يكون لهذا الوليد شأن . فعكفا على تنشئته وتربيته وتعليمه كأفضل ما يكون التعليم والتربية والتنشئة . وفي كل مرحلة من مراحل النمو كان الطفل الناشئ واليافع اللامع يتجاوز في الأصالة والتفكير والعمق والبيان كل ما كان يُقْدَرُ له .

درس في كلية سيلكوت على عالم مشهور كان يشار إليه بالبنان في الأدبين الفارسي والعربي هو شمس العلماء مولانا مير حسن . ثم انتقل بعدها إلى كلية الحكومة بمدينة لاهور حاضرة البنجاب . فبرّز بين أقرانه . وحاز جوائز متعددة . ولمح أستاذه المستشرق السر توماس أرنلد مخايل نبوغه . فلم يكد يتخرج حتى عهد إليه في تدريس الفلسفة واللغة الإنكليزية بالكلية نفسها . ثم ها هوذا يسافر في تباشير القرن العشرين سنة ١٩٠٥ م إلى أوربة شغفاً بالتحصيل العلمي العالي ، ورغبة في الاطلاع على مظاهر حضارة الغرب . فهو يُجاز في الفلسفة من جامعة كمبردج . ثم ينتقل إلى ألمانيا فتمنحه جامعة ميونخ شهادة الدكتوراه في الفلسفة . ثم يرجع إلى إنكلترة فيحصل على شهادة المحاماة من جامعة لندن . وفي خلال ذلك كله يلقي محاضرات تتلامح فيها بوادر فلسفته العالية . ولم تكن تلك الشهادات كلها شيئاً بالنسبة إلى ينبوع العبقرية الثرّ الأصيل في قلب الشاب . فهو قد قطف تلك الشهادات كما يقطف المتنزه في طريقه بعض الأزاهير تدل على مروره بتلك المعالم .

رجع إقبال من أوربة عام ١٩٠٨ م فلقي استقبالاً حافلاً وعرضت عليه مناصب حكومية فأعرض عنها . إنه نزيه عفيف النفس يقنع بالكفاف ويرضى بالميسور ، كما عبر عن ذلك في بيت من ديوانه (رسالة المشرق) ، قال :

« أنا لا أتحمَّل دلال الملوك ولا جرح الإحسان ، يا من انخدعت بالطمع ! انظر إلى همة هذا الفقير . » .

وإنما انصرف إلى الفكر والأدب مع ممارسة المحاماة ، فصنف ديوانين باللغة الفارسية هما (أسرار خودي) و (رموز بيخودي) فنالا إعجاباً عاماً . وترجم الأول المستشرق الشهير نيكلسن إلى الإنكليزية ، فذاع صيت المؤلف في أوربة وأمريكة . ثم يتوالى الإنتاج الفكري وتتلاحق ترجماته . ولعل من أعظم أعماله

ديوانه المعروف (بيام مشرق) أي : رسالة المشرق كتبه مساجلة للشاعر الألماني الكبير غوتي الذي ألف (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) .

وترجم المستشرق الإنكليزي أربري ديوان إقبال هذا ترجمة جميلة إلى الإنكليزية بعنوان (زنابق سيناء) .

وقد حمله أصدقاؤه على ترشيح نفسه لعضوية المجلس التشريعي في إقليم بنجاب سنة ١٩٢٦ م فانتخب عضواً ، وسعى سعياً حثيثاً لتخفيف الضرائب عن كاهل الفلاح الهندي ، ولإجراء إصلاحات اجتماعية متعددة . ثم انتخب عام ١٩٣١ م عضواً في مجلس المائدة المستديرة المنعقد بلندن لإصلاح دستور الهند . وفي رجوعه زار القدس وأوجس مطامع الصهيونية الماكرة ، كما زار مصر ، ثم زار أفغانستان ليشارك فكرياً في تأسيس جامعة كابل . وقام بوجوه كثيرة من النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي . وفي غضون ذلك كله لم يفتأ ذلك الصوت العبقري يعلو ويسمو ويقوى ، حتى تجاوب في الآفاق العالمية دانيها وقاصيها . ولكن صاحبه كان يريد أن يبلّغه أيضاً مسامع العرب . ذلكم أن عناصر ذلك الصوت إن كانت في الظاهر هندية فإن جرسها الممتاز وروح نبراتها عربيان . يقول في ختام قصيدة طويلة رائعة بعنوان شكوى :

أسمعهمو يا رب ما ألهمتني وأعد إليهم يقظة الإيمان
وأذقهم الخمر القديمة إنها عين اليقين وكوثر الرضوان
أنا أعجمي الدنّ لكن خمرتي صنع الحجاز وكرمِها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

لقد سكر إقبال من محبة العرب ودينهم ، ولكنه كان متفتح النفس تجاه الأمم جميعها . فلقد كتب فيما كتب هذه الأبيات في ديوانه (أرمغان حجاز) ينوه فيها بقدر إيطالية حين مر بها : « انظروا إلى هذه الأمة تتشبث بأمواج

البحر الأبيض المتوسط الزرقاء . إنها تغني الآن كالقيثارة وترتفع شامخة كشجرة السرو » .

وقد تُرجم ديوانه (جاويد نامه) وهو من أنفس الدواوين إلى الإيطالية بعنوان (أشعار سماوية) . وذلك أن إقبالاً بارى به شاعر إيطالية (دانتي) في ملهاته المشهورة . وفي عنوان الديوان تورية بابنه جاويد .

لقد قلّ أن يجتمع لإنسان ماجتمع لإقبال من مواهب فطرية وعبقرية عالية وثقافة واسعة . كان عالماً ، ضرب بسهم وافر في ميدان الثقافة الإنسانية الزاخرة ، مطلعاً على تاريخ الفكر الفلسفي الشرقي ولاسيما الإسلامي وخاصة التصوف ، وكذلك على تاريخ الفكر الغربي واعياً لمكاسب الفكر الحديث حتى آخر المكاسب العلمية الفكرية . ونحن الذين نفخر بأنا درّسنا ماراج في العصر الحاضر من عناصر نظرية المعرفة وفلسفة الفيزياء الحديثة ، وقد بدلت وجه العالم ولاسيما في نهاية الربع الأول من هذا القرن ، نجد آثاراً لها وإشارات إليها في كتابات إقبال . ونحن نعلم أن إقبالاً توفي سنة ١٩٣٨ م أي أنه لم يغفل عن معالم الفكر الحديثة أيان نجمت وأنّى برزت .

وكان إلى ذلك شاعراً من أكبر شعراء عصره . بل كان أكبرهم وأوسعهم أفقاً وأعمقهم شعوراً وأشدهم سمواً . وإذا كان الشعراء يكتبون أشعارهم بلغة واحدة فقد أتيح له أن يكتب أشعاره بالفارسية والأردية ، وأن يكتب إلى ذلك بحوثاً فلسفية واجتماعية وسياسية بالإنكليزية ، فضلاً عن معرفته لغات أخرى كالألمانية والفرنسية وإلمامه بالعربية والسنسكريتية .

وهكذا تضافرت الثقافة الواسعة والموهبة الشعرية النادرة والفلسفة المتأملة الواعية والإيمان العميق الدقيق في تكوين هذا المفكر الفيلسوف المصلح الشاعر العظيم .

إنه في الشعر والفلسفة الفارسيين يلحق بالشعراء الأفذاذ العالميين ، ولاسيا بجلال الدين الرومي الذي كان إقبال معجباً به ، ـ ومن منا لا يعجب بمولانا جلال الدين ـ وإن كان يختلف عنهم باختلاف العصر وصروف المجتمع وفي شؤون أخرى عدة ، ولاسيا في توكيده مكانة العمل ، وإلحاحه على فكرة الذات وتفردها ، وهو في هذا الشأن يقترب من الشيخ محيي الدين بن عربي ، كما يختلف عنهم جميعاً في الاستفادة من الفكر الحديث ومن مكاسبه .

عاش إقبال في عهد شهد المدّ الأعظم لطغيان القوى الاستعمارية ولاسيا الانكليز . كما شهد إزاء هذا الطغيان غفلة الشرق عامة والمسلمين خاصة والعرب بوجه أخص ، ورأى تفرق هذه الأمم والشعوب جميعاً . لقد نهض عظماء في الشرق وبين المسلمين وفي أكناف العرب أهابوا بالنوّام أن يستيقظوا ، وبالغافلين أن يتنبهوا ، وبالمتفرقين أن يتجمعوا ، وبالمتواكلين أن يجدّوا ويعملوا . ولكن هيهات لصيحات قوية مخلصة أن توقظ ملايين الرقود كالأموات ، من دون تهيئة أسس فكرية ومادية مكينة ورصينة تجاه حديد الغرب ورصاصه ولؤمه ودخانه . لقد عرف العرب الإصلاح السلفي في محمد بن عبد الوهاب ، والثورة الواعية المتنقلة في السيد جمال الدين الأفغاني . والعلم الديني المستنير المتين في الشيخ محمد عبده ، والتنديد بالاستبداد والتفرق في عبد الرحمن الكواكبي ، والوطنية الشابة المتأججة في مصطفى كامل ، والإخلاص الغيور المصلح في خير الدين التونسي وأمثالهم ، كما عرفت الهند بعض زعماء الإصلاح أمثال السيد أحمد خان والسيد أمير علي (كلمة السيد هنا لقب كما هي للأفغاني) فكان أمثال هذين المصلحين إرهاصاً من بعض وجوه النظر بالفيلسوف الشاعر العظيم محمد إقبال .

راع إقبالاً تخلفُ الشرق المرير تجاه تقدم الغرب المادي ، كما راعه سيطرة هذا الغرب الذي رآه بلا قلب على مئات الشعوب وملايين الأفراد فنذر فكره وقلبه وقلمه للإصلاح وللنضال ، وللتنديد بالغزو والاستغلال والاستلاب .

وجد الغرب مفعماً بالنشاط زاخراً بالحركة . ولكنه مجرد من المبادئ الخلقية الأصيلة ، فقير بالحب والإيمان ، تكبله قيود المنطق بل تنهشه كالأفاعي . لقد سخّر الطبيعة لأغراضه ، ولكنه أخفق في محو البؤس الإنساني ، بل زاد هذا البؤس في آسية وإفريقية وبين شعوب أمريكة وأسترالية الأصليين . أما مأساة الشرق فهي النزوع نحو المظهر الخارجي الخلاب الذي يظهر به الغرب لا نحو قدراته العلمية المبدعة . لقد عانى إقبال ما وجده في الشرق والغرب من انفصام فهو يقول :

« في الغرب العقل مصدر الحياة ،
وفي الشرق الحب قوام الحياة ،
إنما يُدرك العقلُ الحقائقَ بالحبّ
فيثبت مكاسب الحب .
انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد
بالتوفيق بين الحب والعقل »

وينظر إقبال حوله ، فلا يكاد يدع مشكلة إلا أولاها قبساً من فكره وأضاءها بِسَناً من بيانه .

آذاه استغلال الإقطاعي للفلاح فسعى لتخفيف الضرائب عنه كما أشرنا قبلاً إلى ذلك ، وآذاه استغلال الرأسمالي للعامل أيان كان فناداه منبهاً على مكانته في الإنتاج مقترنة بوهن حالته :

« أيها العامل الذي ابتلعه الرأسمالي المحتال ! لقد غبرت حالتك قروناً على الغصون الواهية . يدك هي الخالقة للثروة ، ومع ذلك تمتد كأنها متسولة للحصول على الأجر ... لقد أطعمك ساحر الموت أوراق الحشيش ، فظننتها أيها الغافل سكّر النبات . لقد سيطر عليك الرأسمالي بالحيل الماكرة ، فغلبت أيها العامل على

أمرك بكل سذاجة . تيقظ لأن أسلوب محفل العالم تبدد . وقد ابتدأ شأنك الآن في الشرق وفي الغرب » .

كذلك آذاه وآده طغيان بعض الحكومات على رعاياها ، وهو الذي أشاد بالحرية وعرف مكانتها العليا في تربية الشعوب فهو يقول :

« إلى اليوم ما يزال الإنسان شر فريسة لصيد الحكام . وإنها لقيامة كبرى أن يبقى الإنسان فريسة الإنسان » .

ويقول أيضاً : « لم يخلق هذا الهيكل الترابي في أول فطرته من تراب الجحيم ولا من تبر الرضوان ، ولكن الحياة تخلق فيه بأسلوب العمل جحيماً أو جنة » .

أحب إقبال العرب وفُتِن بلغتهم العظيمة ، ولا غرو فهي لغة القرآن ، لغة السماء زيادة على كونها لغتهم . وهو قد شحذ بأفكاره وأشعاره همم الهنود ، وأجج بحماسته عزائم الفرس ، وأطرب بنغماته الكواكب والأفلاك حتى وصلت إلى السماء السابعة . ولكنه تمنى لو تصل أصوات نايه الرخيم العذب القوي إلى مسامع العرب ، وتبلغ فحواها قلوبهم ، فيجمعوا شملهم ويعودوا أمة واحدة بعد أن صاروا أجزاءً متفرقة وأباديد ، ويستأنفوا سبيل مجدهم الصاعد . لقد آلمه تفرقهم وتصدعهم ، فهو يتلهف على جمع شملهم ويناشدهم :

كل شعب قام يبغي نهضة　　　وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمة　　　لهف نفسي كيف صرتم أمما

لقد تقطعت أوصال البلاد العربية وتوزعها الغزاة بعيد الحرب العالمية الأولى . وقع بعضها في مخالب الانتداب وبعضها في براثن الاستعمار ، فأصابت إقبالاً صدمة عنيفة ، ولكنه أبى أن يتشاءم أو يستسلم : « إن سقط جبل من المآسي على العرب فلا حاجة إلى العويل . إن الفجر لا يطل إلا بعد فناء آلاف النجوم » .

إقبال :

« أنا بشير زنابق الربيع
يتوقد ضرام الحب في قلبي
لا تأنفْ مني اليوم إن وجدتني وحيداً
سوق تتوالى قوافل الورد تترى من بعدي »

الورد يتلو الزنبق

حتى في أنقاض الدمار ، كان إقبال يلمح شعاع أمل لحياة جديدة أكثر حركة وأشد عزماً وأبهى إشراقاً من الماضي .

شُهر عن إقبال أنه شاعر الإسلام وفيلسوفه الكبير الحديث . ولكنه عندنا شاعر العشق وفيلسوف الذات . إنه فيلسوف الإنسان وشاعر المحبة الإنسانية . يتجه إلى الإنسان ليجلو عن ذاته الصدأ والخمود ، ويبث فيه روح المحبة وعزيمة العشق . ونحن يهمنا أن نبين ولو بإيجاز السبيل الفكري الذي يسلكه في الإصلاح .

إن هذا السبيل هو النفوذ إلى نفس المرء وشحذ مافيها من ذاتية مفردة ودفعها في ميدان الأمل والعمل والإقدام والعزة والرقي .

من المعلوم أن سقراط منذ القديم قد اتخذ في الفلسفة شعاراً وهو : (اعرف نفسك بنفسك) . ولما جاء الصوفية المسلمون تجاوز أحدهم وهو يحي بن معاذ الرازي هذا القول فنوه أن : (من عرف نفسه فقد عرف ربه) . ونحن نفهم من هذا القول أن سر النجاة وإكسير النجاح في غمار الحياة أن يسلك المرء السبيل الذي به يحقق مايحسن من قيم رفيعة ومجد مؤثل ، فيستطيع أن يبني ولو حجراً

ما في صرح الحضارة الإنسانية ، بتعاضده هو وغيره من الناس ، حتى يتم الرقي ويطّرد التقدم . ذلك أن الطريق إلى الله بعدد نفوس بني آدم ، كما أشار إلى ذلك صوفي آخر . فالطريق القويم الخاص بكل امرئ هو الذي يستطيع فيه أن يتقن عمله ويحقق جانباً من المعالي ، وإلا كان ضائعاً في ميدان الحياة مسلوباً وهو لا يعي أن هذا الميدان هو درب الخلود .

القضية عند إقبال ليست مجرد معرفة فاترة تكشف دون أن تحفز ، وتجلو دون أن تدفع . ذلك أن النفس إنما هي في ذاتها نفس بقواها الدافعة الحافزة الخلاقة . أنيتها حركة دائبة وجهاد متصل ، وتوتر ناشط وكفاح مستمر ، وشعلة متوثبة النور . كل مايحول دون توهجها سفساف قبيح مرذول . وكل ما يقويها ويزيد في نمائها ويزكيها فهو سامٍ مستحب . قد يتوهم الإنسان الوقت خطاً ممدوداً يقيسه بالليل والنهار فيقع في شباك الوقت . والحق أن الوقت هو الحياة ، هو الأمل والعمل والسير والدأب . ولا خير في حياة تمضي في صمت وسكون واستخذاء . إن الذات لتقوى بتوليد المقاصد وإيجاد الرغبات وتجديد الأماني . والغايات الرفيعة الجميلة تستهوي أصحابها وتبعث فيهم معين القوة ورسيس العشق . هنالك شأن اسمه الخلود ... وهو يتهيأ في أحضان هذه الحياة التي نحياها . يقول إقبال : « غص في البحر وحارب الأمواج ، فإن خلود الحياة في الكفاح . السكون محال في الأرض . انصرام الليل مؤذن بانبلاج الصباح . وآخر عهد البراعم أول عمر الزهر . كل شيء هنا يتغير ويتبدل » .

ويقول أيضاً :

« لقد دفنوا في التراب البذور فلم تَغْنَ في لحدها الهامد
ولم تنطفئ نارُها في الحياة على طول مرقدها البارد

هذا التوقد الحافز هو العشق ، فهو الذي يبعث الرغبات ويشعل في القلوب

الجمرات . وهو الذي يغذي الذات ويولد فيها سمو المقاصد وتحقيق الغايات . العشق هذا معناه طلبك الشيء لتجعله جزءاً من نفسك . وأسمى صور العشق إبداع القيم . العشق متصل بالذات وبفرديتها . إن العشق يجعل الطالب فريداً والمطلوب فريداً أيضاً . إنك إن طلبت أو عشقت مقصداً وتمنيته فإن غيره لا يرضيك ولا يقنعك ، ولا ينقع غلتك ولا يقوم مقامه في إرضائك . العشق هو الطاقة التي تحطم القيود وتتجاوز السدود وتتغلب على الحدود . والذات العاشقة تتجاوز الزمان والمكان . إنها قلم القضاء ومصداق القدر .

وهكذا يتصل في فكر إقبال العشق المتقد بالعلم المنير . العلم يستدعي السؤالات ويدرك الصفات . والعشق يقتحم العقبات ، ويشهد الذات ، ويولد المعجزات ، ويرفع الإنسان فوق النجوم النيرات .

ولا يتم هذا دون مراحل ولا بغير شروط . ففي البدء تنشأ في الذات المقاصد ، وتتولد الرغبات ، وتبرعم الآمال . ثم تدخل الذات ميدان النضال ومضمار الجد والكفاح ، وفي غمرة الكفاح والجد والنضال تتسلح بالمبادئ السامية وتهتدي بالإيمان العميق فتضبط شهواتها ، وتشذب نزعاتها وتهذب طباعها ، وتوحد اتجاهها . أولم يقل الرسول العظيم ﷺ لأصحابه حين قدم من غزاة : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس » .

وهنا لابد من أن نقف فينة عند هذا الأثر ، وإن كان في تخريجه بعض العلل . نوضح فحواه إيضاحاً ينسجم مع ما أراده إقبال . وعندئذ نؤكد بالاستطراد المناسب قصد الفيلسوف الشاعر دون أن نخرج من دائرة أفكاره .

يتضمن لفظ الجهاد اعتماد القوة في تغيير الواقع : واقع النفوس الباطن وواقع الحياة الخارجية . ولما كانت الأديان ثورة على الفساد وإحلالاً للنظام والوحدة

لزم أن تتضمن تعاليمها اعتماد القوة في ذلك . لم تكن المسيحية كلها سلاماً ، فلقد جاء في إنجيل متى قول السيد المسيح : « لاتظنوا أني جئت لألقي على الأرض سلاماً . لم آت لألقي سلاماً لكن سيفاً » . إن الإنسان قد يضطر إلى حمل السلاح دفعاً للظلم وتحقيقاً للعدل وحفاظاً على الكرامة الإنسانية . وقد نشأ في العصر الحاضر التفريق بين الحرب العادلة والحرب الغاشمة . فالحرب والعدة والسلاح أمور خارجية لقهر المعتدين والمفسدين . وكذلك هي رمز لقهر الإنسان عدوه الكامن في نفسه وهو التشتت والهوى والنزعات الفاسدة ، حتى يحل فيها النظام والعدالة والوحدة . فنهاية الحربين الخارجية والباطنة السلام . وإنما اشتق الإسلام من السلام ، وهو غاية النفس والمجتمع . ويبدو حرب الأعداء أمراً يسيراً بالنسبة إلى حرب شتات النفوس وتوزعها . لأنه متى توحدت النفوس وساورها النظام والعدالة سهل التغلب على العدو الخارجي . ولهذا جاز استعمال لفظ الجهاد في الميدانين ، واعتبار جهاد النفس الجهاد الأكبر ، كما جاز اعتماد السلاح رمزاً للموعظة الحسنة والكلم الطيب والحجة البالغة . وقد اشتق العرب من مادة فصل : الفيصل للسيف ، والمفصل بكسر الميم للسان ، وقالوا : قول فصل ، وفصل الخطاب ، وحكم فيصل . وجاء في أساس البلاغة : رب كلام بالمفصل أشد من كِلام بالمقصل ، وقالوا : سيف مقصل ، أي : قطاع ، ولسان مقصل أي : حديد ذرب . ويؤيد صحة الرمز والاستعارة هذين عامة ماجاء أيضاً في رؤيا القديس يوحنا : « وفي يده اليمنى سبعة كواكب ، ومن فيه يخرج سيف صارم ذو حدين » ، فالسيف الخارج من الفم لامعنى له إلا الكلم ، ووصفه ذا حدين إشارة إلى قوة البناء وقوة التدمير فيه .

وعندنا أن إقبالاً وعى كل الوعي مكانة البيان ، فنذر نفسه للشعر والفلسفة يدمر الفاسد ويبني الصحيح في نفس الإنسان متوجهاً إلى كيانه الذاتي ، منسجماً مع مبدأ جهاد النفس .

هذا ومن أهم أساليب البيان وأشدها تأثيراً الشعر وضرب الأمثال والتخيل والإتيان بقصص قصيرة معبرة . انظروا كيف يهاجم البغي والقوة الغاشمة وتقتيل النفوس بغير حق جشعاً وطمعاً في سرقة أموال الغير وسرقة أراضيهم . فقد قص قصة الشيخ ميانمير أحد كبار الصوفية إذ زاره أحد سلاطين الهند . وكان السلطان مولعاً بالحرب والتدمير . وبينما السلطان يلتمس من الشيخ أن يدعو له بالنصر ، تقدم أحد المريدين من الشيخ بدرهم قائلاً : كسبت هذا بكدّي وأرجو من سيدنا الشيخ أن يقبله مني ، فقال الشيخ للمريد : أعط هذا الدرهم السلطان فهو أفقر الفقراء وأحرص الناس على الاستجداء ، كم أخرب بلاداً وقتل عباداً ليشبع !

وإذا جرى كل امرئ على أصول ضبط النفس ومكافحة الأهواء ، تضافرت الجهود وتلاقت الأعمال ، وتحول التشتت إلى التناسق ، والتفرق إلى التوافق ، وصار التجزؤ والانقسام إلى الوحدة والالتئام ، وسهل حل جميع العقد المنيعة المطلب والصعبة المرام . ذلك هو ملتقى الكمال للعلم والقوة ، وتلك نقطة الاتصال بين الفكر والعمل والعاطفة والعقل . عندئذ تتهيأ للإنسان خلافة الأرض . وهنا نجد فيلسوف الذات يرفع قدر الإنسان ، وينوه بعظمته الفكرية ونشأته الروحية ، ويوقع عليه المسؤولية الفردية والاجتماعية في تنظيم هذا العالم ، وذلك بالحرية الواعية الهادية ، والذاتية المتقدة العادلة ، والسمو المبدع :

أمـــا أنـــا فلست أد ... ري أين يعلـــو نظري
أنـــــا تراب غير أنّ ... الشمس دون جـــوهري

الإنسان مسؤول في الحياة . هو صانع ذاته ومجتمعه بالعمل والبناء والنضال والإتقان ، وهو مدمرها ومدمر مجتمعه بالتواكل والتكاسل والإهمال . إنه يكافح إذا عرف ذاته وجوهره ليسمو فوق كل من العالم الذي صنعه الإنسان والعالم الذي خلقه الله . يتخيل إقبال حواراً ممتعاً بين الله والإنسان ليظهر سناً من السر الإلهي

في العالم . يخاطب الله الإنسان : « أنا خلقت العالم من الماء والصلصال كما خلقتك . وأنت خلقت الحواجز الجغرافية لإيرانِ وتركية والتتر وغيرها . جعلت أنا الفاكهة تنبت من التراب ، واخترعت أنت السيف والقوس والنشاب . أهويت أنت على براعم الحديقة بالفأس . حبست أنت الطيور الصداحة في الأقفاص » .

ويجيب الإنسان : رباه

الليـــل أنت خلقتَـــه	وأنـــا الـــذي اخترع السراج
والطين أنت صنعتَـــه	فجعلت منـه أنـا الـزجـاج
والبيدُ والغابـاتُ صنعـك	والجبـال الشـاهقـات
منهـا جعلتُ أنـا الحـدائقَ	والجنـــان الـــزاهرات
وأنـا الـذي من صخرهـا	صقـل المرايـا الـلامعـات
وجعلت من سم الأفـــا	عي الرقش أنـواع العـلاج

أوليس الإنسان جلاء هذا العالم ، وإنسان عينه على حد تعبير الصوفي الكبير محيي الـدين بن عربي ؟! أوليس إن أحسن التصرف يستحـق الخلافـة حين حمـل الأمانة ؟!

إن الأصالة ليست الانقطاع عن الأصل ولاالتنكب عن التراث . يأبى ذلـك اللفظ العربي ، كما يأباه جذر مقـابلـه الأجنبي Originalité , Originality إنها نسغ يتخلـق من الأصـل ، وينـدفـع بـالعشـق في الـذات ، ويعلـو بـالفكـر ، ويسمـو بالنضال . ولعل شخصية إقبال مثال حي على هذه الأصالة الرائعة العالية .

ذلك أنـه لم يتخلّ عن مضـامين التراث التي وعـاهـا ، ولا رفض قيم الحضـارة الحديثة التي اطلع عليها ، وإنمـا كان وفيـاً لمطـالب الحيـاة المستجـدة ، أميناً على خـزائن التراث الرفيعـة . وإذا لهـج بعض الفلسفـات الفنيـة الحـديثـة بفكرة (الالتزام) فإنا لنجد فنه من أوله إلى آخره ملتزماً بحب الإنسان والسعي لإسعاده

أيـان كان . ينوه برفعتـه ، ويشيـد بسموه ، ويـوجهـه إلى أنبـل الغـايـات وأعلى المقـاصـد . وهو في أسـاليب تعبيره عن ذلـك لا يقطع الصلـة بين تشـوف الحـاضر وصور الماضي . هل أذكر عنوانـات كتبـه : رسـالـة المشرق ، زبور العجم ، تحفـة الحجـاز ، جنـاح جبريل ، الرسـالـة الخـالـدة ؟؟ أو أذكر بعض القطع الشعريـة الوجدانية الرقيقة مثل : صدر الشـاعر ، الحكمـة والشعر ، العـالم بلا قلب ، ميلاد آدم ، خمرة الشوق ، النهر ، قيمة الخطر ، الوجود والعـدم ، مـأدبـة العشق ، كلمـة الحب ! .

لأورد ترجمـة هـذه القطعـة الصغيرة (كلمـة الحب) ذات الصـور المحسـوسـة المتسلسلة يروي بعضها الخبر عن بعض ، وكأنها لمعان البرق . يقول إقبال :

« عندي خبر هـذه الكلمـة ، هي جـذوة القلب ، هي سر وليست بسر ، أنـا أنبئـك بمن سمعهـا وأين سمعهـا ، لقـد سرقهـا النـدى من السماء ، وأوحى بهـا إلى الوردة ، وسمعها البلبل من الوردة ، وحملها نسيم الصبا من البلبل » .

كل قصائد إقبال جديرة بالعرض السليم والشرح الـدقيق ، ولكني أتجـاوزهـا لأنوه بتعبير أصيل غـدا متـداولاً بين شعراء الشرق قـديمـاً والغرب حـديثـاً ، وهو تشبيه النفس الإنسانية في تشوقهـا أنوار المعـالي بـالفراشـة تطوف بـالسراج المتقـد المتلألئ . فكما أن الفراشة تطوف حول النور المتوهج ثم ترمي بنفسها فيه لتحترق وتضيئ ، كذلك النفس في سعيها نحو المعالي تحترق مأخوذة بسنا المثل العليا .

ثمة أمثلة متعددة على ذلك عند سعـدي الشيرازي وحـافـظ الشيرازي وفريـد الدين العطـار . وقد تناقل البـاحثون التصوير البـارع الـذي صوره قـديمـاً أحمـد الغزالي أخو أبي حامد الغزالي صاحب الإحيـاء . وهو أن الفراشـة تطوف عـاشقـة للنـور ، ولكن لهيب الشمعـة ينعطف نحـوهـا فيصطلمهـا ويتغـذى بهـا . وهكـذا يصبح العاشق قوتاً لمعشوقـه ، وليس المعشوق قوتـاً لعـاشقـه . وقـد جـاء الشـاعر

الألماني المشهور (غوتي) فاهتدى بأساليب العرب والفرس ، واطلع على اللغتين العربية والفارسية ، وسمى إحدى مجموعاته الشعرية (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) . كتب في هذا الديوان قصيدة بعنوان (الشوق السعيد) اتخذ فيها الفراشة رمزاً لمن يعشق النور ويحترق به ليتحول إنساناً أي إنسان ، لا مجرد طيف يغمره الظلام .

ولما جاء إقبال عبّر أوجز تعبير عن حكاية الفراشة المحترقة ، فهو يصرح بأنها تحترق لتصبح هي نفسها شعلة مضيئة كالشمعة نفسها . هذا هو الوصال الحقيقي . ولحظة الاحتراق أفضل من العيش أعواماً دونه :

أحب احتراقي بنار اشتياقي	ولا أرتضي عيشة الخاملين
فناء الفراشة في النار يعلو	حياة الجبان طوال السنين

ويقول أيضاً :

معنى احتراق القلب في الإخلاص أن	القلب يصبح كله أنوارا
ولقد تحولت الفراشة شعلة	لما أن احترقت فصارت نارا

هذا الاحتراق هو احتراق الحب ، الحب المسكر المصطلم ، حب الإنسان لأخيه الإنسان حتى لا يكون في الأرض ظلم ولا استغلال ولا طغيان .

إن الإنسان إمكانية مرمية في الكون كما يقول بعض الوجوديين . لنقل مع إقبال : ذاتٌ مرمية في الوجود تلتقي بمزاياها وخصوصيتها بخصوصيات الذوات الأخرى ومزاياهم . تتلاقى هذه الذوات ليسند بعضها بعضاً وتتضامن في معراج الرقي والتقدم ، فتسمو وترتفع جميعاً ، وهكذا يكون سر السعادة الخفي وإكسيرها السرمدي في تلاقي هذه الذوات وتضامنها ومودة بعضها لبعض ، وهكذا يستبين معنى هذين البيتين لإقبال :

لم ألق في هذا الوجود سعادة ... كمودة الإنسان للإنسان
لما سكرت بخمرها القدسي لم ... أحتج إلى تلك التي في الحان

لقد اعتاد الناس متى أعجبتهم حكمة أو قول بليغ أن يكتبوه بأحلى خط ، ويصنعوا له إطاراً منقوشاً بماء الذهب . ولما تعذر لديّ الذهب استبدلت به إطاراً من الشعر والأدب ، لكي أبرز فيه حكمة إقبال في هذين البيتين ، حكمة الإسلام والعرب فقلت في الختام :

واهاً لإقبال سمت غاياته ... لما تأمَّل رفعة الإنسان
الذات ، ياللَذَّات في آرائه ... قبسٌ عليٌّ من علا الرحمن
لو أدرك الأحياء رفعة شأنها ... ما كان من خسف ولا طغيان
كالليزر الوقاد ذاتُك فاتجه ... بالذات نحو المجد والعرفان
فإذا تضافرت الذوات تناولت ... ما تبتغيه من علا وأماني
الودّ رابطة الشعوب لو انَّه ... متحقق عاش الورى بأمان
ولما تنافرت القلوب وكافحت ... سلب الحقوق وسَرْقَةَ الأوطان
إقبال قد ناديتَ ! هل سمع الندا ... ظمأى الحروب وطغمة العدوان
صُنتَ السلام لكل قوم ذاتهم ... متيمين حقائق العمران
ياللنداء تصوغه متميزاً ... متسلسلاً من منهل الإيمان
أصفى وأعذب ماسمعت وماسرى ... يوماً من الألحان في الآذان
هذا الأطار صنعته بحشاشتي ... وبسهد أجفاني ووقد جناني :
« لم ألق في هذا الوجود سعادة ... كمودة الإنسان للإنسان
لما سكرت بخمرها القدسي لم ... أحتج إلى تلك التي في الحان »

محمّد إقبال

شاعرُ الإسلام وفيلسوفُ الثورة

الأستاذ عبدالمعين الملّوحي

الأستاذ عبد المعين الملّوحي

● ولد الأستاذ عبد المعين ابن الشيخ سعيد الملُّوحي عام ١٩١٧ م في حمص التي كان والده إمام الجامع الكبير فيها .

● في دمشق التي انتقل إليها ، نال شهادة دار المعلمين الابتدائية (سنة ١٩٤٠ م) ثم شهادة دار المعلمين العليا (١٩٤٣ م) لينتقل بعدها إلى القاهرة حيث نال إجازة الآداب العربية (١٩٤٥ م) .

● بعد عودته من مصر إلى سورية مارس التعليم (منذ ١٩٤٥ م) مدرساً للغة العربية ، ثم غدا مفتشاً لمادة اللغة العربية (١٩٥٨ م) ؛ واستفيد بعدئذٍ من خبرته ، فتقلب في عدة مناصب إدارية وثقافية ، مثل منصب مدير المركز الثقافي العربي بحمص (١٩٦٠ م) ، ومدير المركز الثقافي العربي بدمشق (١٩٦٣ م) ، ومدير التراث العربي في وزارة الثقافة بدمشق (١٩٦٥ م) ، ومدير المراكز الثقافية العربية والمكتبات في وزارة الثقافة (١٩٧١ م) ، إلى أن استُدعي ليتولى منصب المستشار الثقافي في القصر الجمهوري ، وهو المنصب الذي بقي يتولاه حتى تقاعده عام ١٩٧٧ م .

● في سفره له إلى الصين ، مُنح لقب (أستاذ شرف في جامعة بكين) .

● صدر له حتى الآن أكثر من خمسين كتاباً في أغراض مختلفة ، بين التاريخ والتحقيق الأدبي والسيرة والترجمة والشعر واللغة والمجتمع . من أبرزها : (الحماسة الشجرية) (لابن الشجري) في جزأين ، و (أخبار اللصوص وأشعارهم) و (نظير زيتون : الإنسان) و (طعم التخمة وطعم الجوع) و (الفكر العلمي عند ياقوت الحموي) ، إلخ ...

محمد إقبال
شاعر الإسلام وفيلسوف الثورة

السلام عليكم ورحمة الله .

أيها الأصدقاء .

قبل أن أبدأ كلمتي . لي إليكم خاصٌ رجاء .

في الدعوة التي وجهتها سفارة جمهورية الباكستان الإسلامية بدمشق إليكم لحضور هذا الاحتفال ، وردَ أنّي دكتور ، ولستُ بدكتور .

أنا إنسانٌ استطاع أولاً وإلى حدّ ماأن يتخلص من الأمية الحرفية ، فهو يقرأ قليلاً ويكتب قليلاً ، وحاول ثانياً أن ينقذ نفسه ، وإلى حد مامن الأمية الفكرية .

وإذا كنت أشكر السفارة الباكستانية على حسن ظنها بي ، فأنا أكثرُ شكراً لكمُ إذا أعفيتُموني من هذا اللقب العريض .

وبعد ..

ثورات العالم الكبرى في العصر الحديث لها ظاهرة واحدةٌ مشتركة : هي أن القائد السياسيَّ العظيم يرافقه دائماً قائدٌ فكريٌّ عظيم ، ويكفي أن أذكر لكم ثلاث ثورات منها ؛ مع مابينها من فروق :

١ ـ الثورة البلشْفية الكبرى كان فيها قائدها الفكري وأديبُها (مكسيم غوركي) يسير جنباً إلى جنب في رفقةِ (لينين) قائدها السياسيّ الكبير .

٢ ـ الثورة الصينية العظمى ، كان فيها قائدها الفكريُّ وأديبُها (لوشين) يرافق (ماوتسي تونغ) قائدها السياسيَّ الكبير .

٣ ـ ثورة المسلمين الكبرى في الهند التي أدت إلى قيام دولة باكستان كان فيها قائدها الفكريّ وشاعرُها (محمد إقبال) يسير جنباً إلى جنب مع (محمد علي جناح) قائِدها السياسيّ الكبير .

هذه الظاهرة الواحدة المشتركة أوحت لي فكرة أظن أنها صحيحة ، هي أن كل ثورة سياسية كبرى لابد أن ترافقها ثورة فكرية أدبية كبرى .. وهكذا يتعاون السيفُ والقلمُ ، وتتعاون اليدُ والفكرُ في إيقاظ الشعوب أولاً ، وفي نجاح الثورات ثانياً .

نحن في جامعة القاهرة عام أربعة وأربعينَ وتسع مئة بعد الألف ، وأستاذنا الدكتور عبدُ الوهاب عزام ـ رحمه الله ـ يستطردُ في دروسه أحياناً فيحدثنا عن شاعر باكستاني كبير هو . (محمد إقبال) ويلقي علينا بعض ماترجمه له .

لم نكن نعرفُ عن إقبال إلا القليلَ ، ودعتنا أحاديثُ أستاذنا إلى الاستزادةِ من معلوماتنا عنه ، فأقبلنا على دراسةِ ماتُرجم من كتبه ودواوينه إلى العربية ، واستطعنا أن نكون فكرةً عامةً عنه لاندَّعي أنها كانت فكوةً كاملة .

ونحن عام خمسةٍ وستينَ وتسع مئة بعد الألف في باكستان ، وفي لاهور جنةِ الله في أرضِه . وفي مسجد شاهي الكبير الذي يتسعُ لمئتي ألف من المصلين نقفُ خاشعين أمامَ ضريح الشاعر الثائر الكبير (محمد إقبال) في صحن المسجد ، وإذا أنا أرتَجل أبياتاً مطلعها :

أتيتكَ يا إقبال من أرضِ يعربٍ أحيي بك الإسلامَ والثورة الكبرى

ونحن في لاهور مرة أخرى عام سبعة وسبعين وتسع مئة بعد الألف لحضور

المهرجان العالمي لإقبال ، وكنت أحد المدعويين إلى هذا المهرجان ، وإذا أنا أفاجأُ بأن أكثر المستشرقين من الغربيين الذين تحدثوا عن (إقبال) بل إن معهم عدداً غير قليل من المستغربين من الشرقيين يركزون أبحاثهم على (إقبال) الروحاني المتصوف ، ولا يكادون يعرجون على (إقبال) الثائر المجاهد ، أزعجني هذا التصرفُ . وأغاظتني تلك الأحاديث ، وكدتُ أشك في أفكاري ، وقلت في نفسي : لابد من زيارة قبر إقبال أستشيره وأستهديه . لاأدري لم أحب أن أستنطق الموتى ؟ منذ أشهر قليلة وقفتُ على ضريح (سعدي الشيرازي) أستنطقه . أتُرى ذلك لأنا نحنُ الأحياءَ لسنا أسمعَ من الموتى ؟ أترى ذلك لأنهم ، وهم الموتى ، أصدق منا نحنُ الأحياء ؟ ويممت وجهي شطرَ مسجد (شاهي) الكبير ووقفتُ أمام الضريح الغالي ... كان المسجدُ الكبير يغرقُ في أشعةِ القمرِ ليلةَ البدر . كنت أرى مئتي ألف من المسلمين يصلُّون ، تتلألأ جباههم على حجارة المسجد الكبير فتزيدها أشعةُ القمر نوراً على نور . كان الليل ساجياً وكانت النسماتُ الناعمةُ تحمل إلينا أريجَ أزهار (لاهور) الدائمة فتنعشُ نفوسنا وأرواحنا . وقفتُ على القبر العزيز أسائل إقبالاً . أخبرني يامولاي أأنت كما ذكر المستشرقون ؟ شعرت أن أنفاسَ إقبال الحارةَ تلفحُ وجهي وأحسستُ أن كلماتِه تنغرسُ في ضميري قال : كلا ثم كلا يابني . لقد كنت مؤمناً عميقَ الإيمان ، ولقد كنت متصوفاً معتدلَ التصوف ، ولكني كنت أيضاً ثائراً شديد الثورة ، كنتُ ابنَ الأرض وأخا الإنسان وفيلسوفَ الإسلام وجزءاً من شعبي المعذّب المناضل .

المستشرقون يريدون أن يسلُبوني أطيب صفاتي وأهمَّ ميزاتي . المستشرقون يريدون أن يجعلوني ميتاً أو أشبَه ماأكون بميت . المستشرقون يريدون أن يتركوني أعمى لاأبصر ما يدور في العالم من أحداث ، لاأبصرُ ما يرتكبُه المستعمرون في كل أرجاء الأرض من مجازرَ ومآثم ، وكلَّ ذلك أبصرتُ . المستشرقون يريدون أن أكون أصمَّ لاأسمع صرخاتِ المستعبدَين والضعفاء وكلَّ

ذلك سمعتُ . المستشرقون يريدون أن أكون أخرس لا يفضح جرائم المستعمرينَ والمتسلطينَ وكل ذلك فضحتُ . عد إلى مهرجاني يابني وأعد عليهم كلماتي بعد مماتي ، هذه الكلمات التي كتبتها في حياتي :

إن حال السكر تخالفُ الإسلام وقوانينه ، وإن حال الصحو هي الإسلام لم يبق كثيرٌ من البضائع الإسلامية في حوانيت الصوفيةَ ومع ذلك فلست ضد الصوفية ، بل لقد انتقيت من طرقها ما هو ألصقُ بالإسلام وأدنى إلى الإنسان وأقربُ إلى الحياة انتقيت طريقةَ جلال الدين الرومي . عد إلى مهرجاني يابني وقل لهم .

إني كنت شاعرَ (الذات الإنسانية) دعوتُ إلى تفتحها وإغنائها وإنمائها .

قل لهم : إن شعلة الحياة لا يمكنُ أن نستدينها من الآخرين .

قل لهم : إن الإنسان حرٌّ ولا عبوديةَ إلا لله وحده .

قل لهم : إن إمكاناتِ الإنسان لا تنمو ولا تتحققُ إلا في ظلالِ الحرية .

قل لهم : إن الحياة كلها ليستْ إلا محاولةً من أجل تحقيقِ الحرية .

يا إلهي حرر الفكرَ من العبودية .
واجعل الشباب أساتذة الكهول .
وامنحهم قوةً تنبض بها حياتُهم .
هب لي قلب (علي) وحبَّ (الصديق) هب الشباب آلامَ قلبي .
وحبي وبصري .

عد إلى مهرجاني يابني وقل لهم :

إن إقبالاً درسَ حياة المجتمعات الإنسانية وأحاط بها علماً ، فرأى بأم عينيه أن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، هو قانون المدنيةِ الحديثة .

وأن هدَف الفاشية والديمقراطية البرلمانية واحد هو استعمار الشعوب الضعيفة في آسيا وإفريقية وامتصاصُ دمائها .

ومن أجل ذلك أحببت شعوبَ آسيا وأفريقية على الخصوص ، وكنت في طليعة الذين تصدوا للهجمة الصليبية الشرسة التي اكتوى بنارها العالم الإسلامي خاصة وشعوبُ آسيا وإفريقية عامة في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ومن هذه الشعوب الإسلامية كان أهلي وشعبي في الهند .

لقد استطعت بشعري أن أنفُثَ في ملايين القلوب من المؤمنين في الهند حركةً جديدة ترمي إلى إنشاء دولةٍ مسلمة . فماجتْ هذه الملايين بالأشواق وتفطرت بصائرها عن همٍ لاتحد حتى انبعثت هذه الدولة التي تغنيت بها ونفضت عنها غبارَ القرون ، وصارتْ حقيقةً ساطعةً بعد أن كانت عند الناس خيال شاعر .

إن شعري لم يكن شعراً محايداً ، لم يكن فناً للفن ، ولكنه كان شعراً ملتزماً ، كان قوة سياسية مبدعة استطاعت أن تحقق في زمن قليل مالم يستطع الساسةُ والمفكرون تحقيقه في الزمن الطويل .

عد إلى مهرجاني يابني وذكرهم .

أني كنت رئيس مؤتمر الرابطة الإسلامية عام ثلاثين وتسع مئة بعد الألف ، وأني اشتركت في المؤتمر الإسلامي في بيت المقدس عام اثنين وثلاثين وتسع مئة بعد الألف ، وأن من يشترك في هذين المؤتمرين لم يكن صوفياً معتزلاً ، وإنما كان خلية حية في جسد حيّ ، جسد وطنه ودينه .

عد إلى مهرجاني يابني وخبرهم .

أني كنت من أوائـل من أدركـوا مـا يعـانيـه العمال والكادحـون من حرمـان وآلام ، وأني قلت لهم في قصيدتي (رأس المال والعمل) :

إلى العامل الكادح أذهب
وإليه أتوجه برسالتي
الكلمات ليست كلماتي وحدها
إنها تحمل رسالةً تهزُّ أركان العالم
آه ... أيها العامل إن الرأسماليّ الخبيث
قد التهم لحمك وجِلدَك
في الشرق والغرب يسرقون عصارة أيامك
ولكن شمساً جديدة حمراء
تشرق من رحم هذا الكون العجوز
وأنت أيتها السماء
كفاك نواحاً

بل أنا أزرع في نفس العامل بذور الآمل في النصر فأناديه :

أيها العامل . لقد ابتلعكَ الرأسماليُّ المحتال .

يـدُك هي التي خلقت الثروة ويـدك هي التي تمتـدُّ للحصـول على الأجر الرخيص .

استيقظ أيها العامل .

لقد بدأ دورك الآن في الشرق والغرب .

عد إلى مهرجاني يا بني وأنشد قصيدتي (لينين أمام الله) .

صاح الديك فتوارى إقبال وامحى القبر واختفى المسجـد ووجـدتني في غرفتي

أتململ ، ونار إقبال اللاهبة تتقد في قلبي وصوته المدوي يملأ نفسي وسمعي . عدت إلى المهرجان ، في اليوم الثاني ، وألقيت كلمتي . كان لشعر إقبال وفلسفته وجهان اثنان متقابلان :

وجه روحي نظري
ووجه مادي عملي

كان مؤمناً بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذا هو وجهُه الروحي ، وكان مؤمناً بالإنسان والتقدم والاشتراكية أو على أقل تقدير بالعدالة الاجتماعية . وهذا وجهه العملي .

لم يكن هذا الوجه العملي انحرافاً عن الوجه الروحي ، بل كان تكملة له ، كان هو الوجه الثاني لعملةٍ واحدة .

لقد درس إقبال الإسلام دراسة العالم المتبحر ، وقرأ القرآن قراءة المؤمن الواعي ، واطلع على سيرة الرسول العربي الكريم ﷺ وسيرة أصحابه رضي الله عنهم .

قرأ قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

« إن الله جعل في أموال الأغنياء أقواتَ الفقراء ، فما جاعَ فقيرٌ إلا بما متّعَ به غني ، والله تعالى سائلهم عن ذلك » .

فعرف إقبال أن كل ماتفعلُه الثوراتُ أنها تنتزعُ من كروش الأغنياء الشاسعة أقوات الفقراء لتملأ بها معدهم الخاوية .

هذا حقٌ من حقوق الفقراء .

من يجادلُ في هذا الحق يجادل في الحق ذاته .

وسمع قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« عجبت لمن له عيال ، وليس له مال ، كيف لا يخرج على الناس يعترضهم بسيفه » .

فعرف إقبال أن من حق الجائعين أن يثوروا من ينكر هذا الحقَّ ينكر الحقَّ نفسه .

حسبنا أن نتلو مقاطع من قصيدة إقبال (لينين أمام الله) هذه القصيدة التي يرتفع فيها شاعرنا إلى مستوى إنساني رفيع قل أن وصل إليه شاعرٌ في العالم كله ، ثم حسبنا أن نترك لكم أن تحكموا عليها بأنفسكم وعسانا أن نلتقي في الحكم .

قال إقبال (لينين أمام الله)
لينين يخاطب الله ، يوم القيامة ، قائلاً
أنت الذي نجد آثارك في كل مكان
في الحياة ، وفي الطبيعة
الحق أنك سرمدي حي
ولكن كيف السبيل إلى معرفة ذلك ؟
إلى معرفة أنكَّ أنت الحيُّ القيوم ؟
مادام الحكماء يبدّلون آراءَهم في كل حين
مادام الراصدونَ للنجوم في السماء
مادام المراقبون للنبات في الأرض
لم يميزوا ما في العالم من موسيقى علوية
أما الآن
وبعد أن رأيتك بعينيَّ هاتين
فأنا مؤمن بكل ما كنت أظنّه

من أباطيل الكنائس
نحن الناس
مقيدون بسلاسل الليل والنهار
وأنت الله
خالقُ الزمان والمكان
فهل تأذن لي أن أسألك سؤالاً واحداً
سؤالاً لم تستطع فرضيات الفلاسفة
أن تجد له جواباً

لقد كان هذا السؤال طوال حياتي في الأرض
شوكةً مسمومةً تنغرسُ في قلبي
وتنفثُ القلقَ في روحي
حتى ما كنت أستطيع أن أوقفَ أمواج كلماتي
أين الإنسان الذي أنت ربُّه
ذلك الإنسان الذي خلقته من طين
والذي يعيش تحت السماء ؟
الآلهة في الشرق همْ بيضُ الغرب
الآلهة في الغرب هم الدولاراتُ البراقة
الغرب بفنه وعلمه يغوص في الظلمات
في ظلمات لا تبدِّدها كل ينابيعِ الحياة
المصرفُ كبيرٌ شامخ
يرتفع عالياً فوق أعلى كنيسة
ما يسمونه تجارةً
إنما هو قمار

الأرباح يجنيها شخصٌ واحد
والموت يكتسح الملايين
المعرفةُ والعلمُ والفلسفةُ جميعاً
أداةٌ مسخرةٌ لامتصاص دم الإنسان
ومع ذلك فهي تَدَّعي أنها تبشر بالمساواة
الدعارة والشقاءُ والبطالة
تلك هي ماحققته حضارة الغرب من انتصارات مُدمِّرة
دون رحمة من الله
لا تساوي أمةٌ كاملةٌ عندَ الغرب
أكثرَ من وقودٍ للكهرباء والبخار
الآلات التي تقتل النفس
وتخنق الخيرَ في الإنسان
هي التي تنتصر

ومع ذلك فقد دلتْ بعض الإشارات
على أن القدرَ ، وهو لاعب شطرنج ماهر
قد كشف ألاعيبهم
خماراتهم زُلزلتْ
مؤسساتهم تَرنحتْ
حكام أوروبة أصابهم الرعبّ
الصبغة البراقة التي تكسو وجوههم
عند المساء
ليست إلا خضاباً كاذباً ، احتقاناً في وجه مخمور
أنت القادر العادل في الكون

أنت تعلم أن العامل بائس
حياته قاسيةً مرة
فقل لي :
متى يشرفُ مركبُ الرأسمالية على الغرق ؟
العالم كله ينتظر الحساب ....

(دهش الملائكة من عرض لينين للوقائع ، هذا العرض القويّ البسيط فجعلوا يرتلون)

رجل الفكر لا يكبح له جماح
الحب يبحث عن مكان يأوي إليه
أيها البارئ المصور الخالد
في لوحتك شيء ناقص
المستثمر والكاهن يقفان للإنسان بالمرصاد
في العالم هنالك ما يزال النظام القديم قائماً

(وأمر الله أن تهدم أسس المجتمع القديم القائم على الظلم والطغيان ، وأن يقوم مقامه مجتمع إنساني جديد وقال)

هلموا فأيقظوا في الأرض الفقراء
هلموا فهزّوا أركان قصور الأغنياء
أدفئوا دماء العبيد بنار الثقة والإيمان
هَبوا للعصفور قوة يصارع بها الشاهين
يوم سيادة الشعوب يقترب
في خطوات حثيثة
لتتهدم صروحُ الماضي أينما كانت
لتحترق كل سنبلةٍ في الحقل

لا تكون طعاماً للفلاح
الحضارة الحديثة
مصنع ينفخون فيه الزجاج
املؤوا صدر شاعرِ الشرق
بغضب نبيل
يسحق به هذا المصنعَ سحقاً

هذه مقاطع من قصيدة إقبال التي أعلن آسفاً أنها لم تصلني كاملة منذ عشرين سنة ، منذ قرأت بعضها في مجلة (الثورة الافريقية) وترجمتها ونشرتها . أعتقد أننا بعد مامر بنا من شواهد ومقتبسات من شعر إقبال وكتبه وفلسفته نستطيع أن نحكم حكماً واضحاً عادلاً :

الله ربنا ومحمد نبينا ، والإسلام ديننا ، هذا هو البند الأول في الحكم والله ومحمد والإسلام مع الحق والعدل وكرامة الإنسان ، وهذا هو البند الثاني في الحكم هكذا فهم إقبال رسالة السماء كشاعر كبير وكفيلسوف كبير وكثائر كبير .

إن خير مانفعله في تكريم إقبال في ذكرى ميلاده أن نردّ له وجهه الحقيقي شاعراً وفيلسوفاً وثائراً .

شاعراً غنى فضائل الإسلام أحسنَ ما يكون الغناء .

وفيلسوفاً فلسف حياة الأفراد والشعوب والإنسانية كأحسن ماتكون الفلسفة ، وثائراً ثار على الظلم والاستعمار والعبودية كأعنف ماتكون الثورة هذا هو وجه إقبال الحقيقي ، وإنه لوجهٌ مشرقٌ بالإيمان والعدلِ والإنسانية .

وتسألونني :

أترى لقيت كلمتك هذه صداها بين الناس .

وأقول لكم في صدق أني تلقيت عليها ثلاث جوائز .

١ ـ أما الجائزة الأولى فقد كانت حين طلبت مني ثلاث جامعات منها جامعة إقبال في لاهور وجامعتان في إسلام آباد وراول باندي إلقاءها فيها .

٢ ـ وأما الجائزة الثانية فقد كانت حين أنشدني شيخ معمم جليل من مشايخ المسلمين قصيدة (لينين أمام الله) كلَّها باللغة الأوردية وترنم بها ترنماً وترجمها لي باللغة العربية ، ونحن عائدان بالسيارة من روال باندي إلى إسلام آباد .

٣ ـ وأما الجائزة الثالثة فكانت عندما جاءتني سيدة باكستانية فاضلة إلى الفندق ، بعد إلقاء كلمتي ، لتقول لي : نشكرك لقد أعدت إلينا شاعرنا وفيلسوفنا وقائدنا إقبالاً ، بعد أن كاد المستشرقون والمستغربون على حدٍّ سواء يسلبُونه منا .

وعدت من باكستان إلى الصين لأستقبل جائزة رابعة رائعة ، لقد نشرت الصين ولأول مرة في تاريخها كتاباً عن محمد إقبال وليس لي بعد أن نلت كل هذه الجوائز إلا أن أعود فأذكركم بمطلع أبياتي على ضريح إقبال :

أتيتك ياإقبال من أرض يعرب ... أحيي بك الإسلام والثورة الكبرى

وكأني أسمع إقبالاً يرد على تحيتي بأحسن منها فينشد

أنا أعجميُّ الدن ، لكن خمرتي ... صنع الحجاز وكرمها الفينان

إن كان لي نغمُ الهنود ولحنهم ... لكنَّ هذا الصوتَ من عدنان

والسلام عليكم .

العلاّمة محمد إقبال كما عرفته

الدكتور إحسان حقي

الدكتور إحسان حقي

- وهو من الأصدقاء المخلصين للعلامة محمد إقبال
- وله عدة مؤلفات عن باكستان والقضايا الإسلامية والدولية منها :

١ ـ مأساة كشمير المسلمة .

٢ ـ باكستان ماضيها وحاضرها .

٣ ـ تاريخ شبه القارة الهندية الباكستانية منذ أربعة آلاف سنة وإلى اليوم .

٤ ـ ترجم أحد كتب الهنادكة المقدسة ، وهو كتاب العادات والطقوس ، أو التشريع الهندوكي المعروف باسم (منو سمرتي) ، وعلق عليه ، وقارنه بأحكام الديانات الثلاث : الإسلام والمسيحية واليهودية .

- حائز على وسام النجم الباكستاني
- وله دور شامل في نضال وكفاح الشعوب ضد الاستعمار .

العلّامة محمد إقبال كما عرفته

لعلي من الأفراد القلائل الذين يتمتعون اليوم بالحياة من الذين عرفوا العلامة المغفور له محمد إقبال عن كثب وعاشروه ، وكانت لهم به صلة صداقة ومحبة .

لاشك أنه يوجد في باكستان وربما في غير باكستان أناس يكبرونني سناً وعاشوا في الزمن الذي كان فيه فقيد الإسلام حياً ، بل ربما كانوا من أهل بلده أيضاً ، ولكن لم يسعدهم الحظ بمعرفته إلا بالاسم إما لأنهم بعيدون عن شخصية إقبال ومحيطه العلمي والأدبي ، أو لأنهم لم يكونوا يطمعون بالقرب منه بالنظر إلى منزلته الرفيعة .

أما أنا فقد رفعت من أمامي الحواجز والحجب ، وكانت لي بالمغفور له صداقة أعتز بها ، لاسيا وأني كنت أرى من المغفور له من العطف واللطف أكثر مما كنت أتوقع ، على الرغم مما بيننا من فرق شاسع في العمر والمنزلة .

كنت على صغر سني ، آنذاك ، إذ ترجع صلتي بالمغفور له إلى أواخر العشرينات ، كنت ألقى منه معاملة الصديق لصديقه أو الند لنده ، وقد رفعت الحجب بيني وبينه ، فكنت أزوره متى شئت ، وأكتب إليه في بعض ما يعرض لي فيجيبني بخط يده .

ولما أنشأ دائرة المعارف الإسلامية أو المجمع العلمي الإسلامي سنة ١٩٣٣ م

انتخبني عضواً فيه على الرغم من وجود كثير من الأساتذة والعلماء الذين دعوا إلى الجلسة الافتتاحية بصفة مندوبين ومستمعين فقط ، وكان المغفور له يود أن يجعل من هذا المجمع نواة لمجمع علمي للدراسات الإسلامية على أسس علمية واسعة النطاق ، لكنه لم يبلغ أربه لأن الأمراض عاجلته وتوفي في ١٣ أبريل ١٩٣٨ م ، وبموته ماتت الفكرة إذ لم يقم بعده من يتولاها .

قلت إنني من القلائل الذين ما زالوا على قيد الحياة من الذين لهم صلة بالمغفور له ، وتكاد تكون هذه الصلة وساماً لي ، إذ حينما أكون في باكستان ويريد أحدهم أن يعرفني بآخر يقول له : أقدم إليك الدكتور حقي صديق العلامة إقبال ، فترتفع منزلتي عنده لهذه الصفة ، وإذا ذهبت إلى السوق مع صديق باكستاني ورأى أن التاجر يغالي بسلعته يقول له : يجب أن تراعيه لأنه صديق العلامة إقبال ، وكان التاجر يراعيني فعلاً .

وكلامي عن العلامة إقبال يختلف عن كلام غيري من الناس ، لأني عرفته عن كثب وعاشرته بينما يتكلم أكثر المتكلمين عنه بما يقرؤونه من شعره وأدبه ، والفرق بين الحالتين كبير .

العلامة محمد إقبال هو ابن محمد نور بن محمد رفيق الذي هاجر من موطنه كشمير ، وأتى وسكن سيالكوت ، ولذا فهو بنجابي المولد ، وعاش في البنجاب إلى آخر أيام حياته ، وعلى هذا الاعتبار فقد كان منذ طفولته يتكلم اللغتين البنجابية والأردية ، ثم لما درس تعلم العربية والفارسية والإنكليزية وكان له إلمام باللغة الألمانية ، وقد قال الشعر باللغتين الأردية والفارسية ، وأكبر دليل على أنه شاعر ملهم وعبقري فذ ، أنه لم يذهب قط إلى إيران ولا عاشر إيرانياً وعده الإيرانيون من أكبر شعراء الفارسية ، ولقد قرظ شعره وأدبه أدباء وشعراء إيران ، ورفعوا منزلته الشعرية فوق كثير من فطاحل شعرائهم ، لأن شعره لم يكن ثرثرة وعواطف ، بل كان شعر حكمة وفلسفة وعلم ، ويزين كل هذا أنه كان يحوم

دائماً حول القضيـة الإسلاميـة التي كانت تشغل بـالـه منـذ صغره ، ويود أن يرى العالم الإسلامي في أوج العظمة كما كان في السابق . فقد نشـأ العلامـة إقبـال نشـأة إسلامية إذ كان أبوه يسألـه كل يوم وعلى فترة ثلاث سنوات مـاذا تصنع يـاإقبـال بعد صلاة الصبح ؟ ويقول إقبال كنت أقول لوالدي : لماذا تسألني عما أعمل وأنت تعلم مـاأعمل . فيقول لي والـدي : إني أعلم أنـك تقرأ القرآن بعـد الصـلاة ، ولكني أريد أن تقرأه وكأنه أنزل عليك .

ولد العلامة إقبـال في ٣ ذي القعـدة ١٢٩٤ هـ الموافق ١٨٧٧/١١/٩ م وتوفي في ٢٢ صفر ١٣٥٦ هـ الموافق ١٩٣٨/٤/٢١ م أي أنه بلغ إحـدى وستين سنـة من العمر فقط ، قضاها كلها في خـدمـة العلم والإسلام والمسلمين ، قلت إني كنت من عشراء المغفور له ، فإني قد اطلعت على حياتـه الـداخليـة وربمـا يكون في ذكر طريقـة حياته ما يدل على خلقه وعلمه .

كان المغفـور لــه يجلس كل يــوم بعــد العصر في صحن داره في الأيــام التي لا يستطيع فيهـا المرء أن يجلس داخل الغرف بسبب الحر ، وفي الشتـاء كان يجلس داخل غرفة الاستقبال فيزوره الأصدقاء ، ويجلسون إليـه بلا تكلف ولم تكن داره لتخلو من الأصـدقـاء في كل يوم ، ولكنهم لم يكونـوا من عرض الطريـق بـل من النخبة العلمية ، ولم يكن الدخول عليه يحتـاج إلى إذن مسبق ، إذ لا يقصـده بعـد العصر إلا الأصدقاء ، وأما أصحاب المصالح فقد يـأتون في الصبـاح ، لأن المغفور له كان يتعاطى مهنـة المحـامـاة وكانت جلستـه جلسـة هـادئـة ، إذ كان يجلس في كرسي لا يختلف عن كراسي أضيافه ، وكانت قصبة النرجيلة لاتفـارق فمـه ، وكان وهو بين الحضور وكأنـه يسبح فوق الغيوم ، فهو يستمـع إلى أحـاديث جلسـائـه ، ولا يتكلم إلا لكي يعلق على كلمة أو ليجيب على سؤال ، وكان كلامه هادئـاً . أمـا شأنه معي فقد كان يختلف عن ذلك ، إذ كان يسألني عن سورية أولاً ثم عما أعرف من البلاد الإسلامية وحـال المسلمين فيهـا ثـانيـاً ، وكانت القضيـة الإسلاميـة هي

شغله الشاغل ، وكان متألماً جداً لضياع الخلافة ، وكان يتكلم عن المسلمين بحسرة وألم ، لكنه لم يكن يائساً بل كان موقناً بنهضة المسلمين .

وكان رحمه الله فيلسوفاً بالفعل لا بالقول ، وكان زاهداً في الحياة ، فلا يطمع منها بأكثر مما يسد رمقه ويقيم أوده ، ولذلك فقد كان إذا أتاه مبلغ من المال من القضايا التي كان يرافع فيها ، فإنه كان يدفع هذا المال إلى وكيل خرجه ، ثم يقول له أخبرني قبل أن ينتهي هذا المال لكي أعمل للحصول على غيره . وأما ما دام عنده ما يكفيه فإنه لم يكن يأخذ قضية يرافع فيها ، ولذلك فإنه لم يخلف وراءه غير الدار التي كان يسكنها ، ولكنه ترك للعالم كله وليس لأهله أو لباكستان فقط إرثاً كبيراً من العلم والأدب والفلسفة .

كان إقبال مشهوراً كشاعر وفيلسوف في الهند ، ولكن شهرته في أوربة كانت أعظم من شهرته في بلاده ، لأن الأوربيين كانوا على منزلة رفيعة من العلم تفوق ما كان عليه الهنود ، ولذا فإنهم كانوا يقدرون ما ينطوي عليه هذا العبقري من أفكار فلسفية وعلوم واسعة وآراء بعيدة المدى .

كان الإنكليز منذ أن وطئت أقدامهم البلاد الهندية في القرن السابع عشر وقبل أن يهدموا صرح الأمبراطورية الإسلامية سنة ١٨٥٧ م يعتمدون على الهنادكة في تسيير سياستهم ، لأنهم كانوا يعلمون بأن المسلمين لن يخلصوا لهم لأنهم سلبوهم ملكهم ، ولكن الهنادكة كانوا مخلصين للإنكليز وكانت كل سياستهم تدور حول الاستيلاء على الهند مباشرة أو تحت حكم إنكليزي . وقد خدع كثير من المسلمين في بادئ الأمر بالمؤتمر الهندي وانضموا إليه لأنهم ظنوا بأن الهنادكة يعملون للوطن وليس للهندوكية ، ولكن العلامة إقبال أدرك بعين بصيرته وبما له من معرفة بما تنطوي عليه الديانة الهندوكية من عداء للإنسانية ، بأنه من المستحيل أن يعمل الفريقان معاً لخدمة الهند ومصالح أهلها كلهم من غير تفريق بين دين وآخر ،

ولذا فإنه كان من دعاة خلق دولة إسلامية وأخرى هندوكية ، وقد فهم بعض زعماء المسلمين ولو متأخرين هذه الحقيقة ، وعملوا برأي العلامة إقبال ، وطالبوا الإنكليز حين أجبروا على ترك البلاد الهندية بأن تقسم البلاد بين المسلمين والهنادكة ، وفي مؤتمر آله آباد الذي عقد سنة ١٩٣٠ م وكان رئيسهُ العلامة إقبال ، قال في خطبته الافتتاحية بضرورة إقامة دولة إسلامية وأخرى هندوكية ، وأصر على ذلك ، لأن لكل من الفريقين آداباً وأخلاقاً وعادات وعقائد تختلفُ عن الفريق الآخر ، وأن الهنادكة على الرغم من أنهم كانوا يعيشون في ظل الأمبراطورية المغولية وغيرها من الممالك الإسلامية التي ظهرت في الهند عيشة سعيدة يلقون فيها كل احترام ومحبة وتكريم من قبل المسلمين ، فإنهم كانوا حاقدين على المسلمين لأنهم انتزعوا منهم ملايين الهنادكة الذين اعتنقوا الإسلام طائعين مختارين ، وقد تأثر كثير من الزعماء بأقوال العلامة إقبال ، فأصبحوا يفكرون بدولة إسلامية وليس سواها .

وهنا لابد لي من أن أتطرق إلى البحث ، عما لقيه المسلمون من غدر الهنادكة بعد تقسيم البلاد ، إذ قضت المعاهدة التي وقعت بين الفريقين الهنادكة والمسلمين بتقسيم البلاد إلى دولتين ، على أن تراعى في كل دولة الأكثرية الدينية ، فكانت الدولة الإسلامية تضم جزأين من البلاد ، أحدهما في الشمال الغربي وهو ما يسمى اليوم بباكستان ، والثاني في الجنوب الشرقي وهو ما يسمى اليوم ببنغلاديش . وكانت هذه الدولة أكبر دولة إسلامية ذات شأن بعد الدولة العثمانية ، ولذا فإن الهنادكة أضمروا هدمها وأعلن زعماؤهم ذلك صراحة في مناسبات كثيرة ، وظلوا يعملون حتى هدموا هذا الكيان الإسلامي ، وشطروا هذه البلاد الإسلامية إلى شطرين باكستان وبنغلاديش ، وكانوا يظنون أن بمقدورهم السيطرة على بنغلاديش ، ولكن من حسن الحظ أن بنغلاديش ظلت بلداً إسلامياً ، وظلت على صلات حسنة بباكستان ، لأنها أدركت أن مجيب الرحمن زعيم فكرة الانفصال

كان عميلاً خائناً فقتلوه هو وعائلته .

ومما ارتكبه الهنادكة ضد المسلمين ، أن اتفاقية الاستقلال كانت تقضي بأن تضم الإمارات الوطنية التي كانت تعد نحو ٦٥٠ إمارة بين صغير وكبير إلى البلاد التي هي فيها ، فالإمارات الموجودة في هندوستان يجب أن تضم إلى هندوستان ، والإمارات الموجودة في باكستان يجب أن تضم إلى باكستان ، سواء أكانت إمارات هندوكية أو إسلامية ، وأما الإمارات التي على الحدود بين البلدين يستفتى أصحابها في البلد الذي يريدون الانضمام إليه ، على أن تبقى الأفضلية للدين ، فالإمارة الحدودية المسلمة تنضم إلى باكستان ، والإمارة الحدودية الهندوكية تنضم إلى هندوستان ، غير أن الهنادكة لم يوفوا بهذا العقد بل ما كاد الإنكليز يخرجون من البلاد حتى انقضوا على كشمير ، فاستولوا على أكثرها ، مع أن تسعين في المئة من أهلها من المسلمين ، وكذلك انقضوا على إمارة جونا كره ، وكان لإمارة حيدر آباد امتياز خاص إذ أن المعاهدة قضت بأن تظل هذه الإمارة الكبيرة مستقلة عن باكستان وهندوستان ، إلا إذا شاءت هي الانضمام إلى أحد الطرفين ، وكان من البدهي أن تبقى مستقلة أو أن تنضم إلى باكستان المسلمة ، ولذلك فقد عاجلها الهنادكة واستولوا عليها بالحرب ظلماً وعدواناً .

هذه لمحة عن العلامة المغفور له محمد إقبال ، أو : محمد إقبال في مبادله ، وأترك الحديث عن أعماله العلمية إلى غيري من الأدباء الذين سيعالجون هذا الموضوع .

وعلى كل حال فإن الكلام عن العلامة إقبال يحتاج إلى مجلدات ، لأنه من الرجال القلائل الذين لا يجود بهم الزمن إلا على فترات متباعدة .

قلت إن الأوربيين قدروا العلامة إقبال وفهموه أكثر من الشرقيين ومن أهل بلده أيضاً ، ولذلك فقد قررت لجنة نوبل إعطاءه جائزة نوبل ، ولكنه رفض

ذلك ، لأنه كان يقدر نفسه حق قدرها ، ولم يكن بحاجة إلى نوبل لكي ينبله . ولما أراد الانكليز سنة ١٩٢٢ م منحه لقب (سر) اشترط عليهم لقبوله أن يمنح أستاذه مير حسين لقب (شمس العلماء) وهذه أخلاق تدل على نبل وعلى اعتراف بالجميل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الإنسان الكامل عند إقبال

الدكتور علي حسون

الدكتور علي حسونه

● ولد عام ١٩٣٨ م في بلدة حرستا قرب دمشق .

● حصل دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية في مدارس حرستا ودوما ودمشق .

● نال شهادة دكتور في جراحة الأسنان من جامعة دمشق عام ١٩٦٢ م برتبة جيد جداً .

● مارس ولا يزال يمارس مهنة طب الأسنان وجراحتها حتى الوقت الحاضر .

● انتسب إلى فرع معهد هردر لجمهورية ألمانيا الديموقراطية في دمشق . ودرس اللغة الألمانية وآدابها لمدة ست سنوات ونال درجتين علميتين .

● زار تركيا وبعض البلدان الأوروبية لعدة مرات في جولات تاريخية وعلمية .

● اشترك في بعض المؤتمرات العلمية والأدبية ، وحاضر في جامعة طهران بمناسبة انعقاد مؤتمر إقبال اللاهوري الدولي في آذار عام ١٩٨٦ م .

● له بعض المؤلفات التاريخية والفلسفية أبرزها كتابي « تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية » و « فلسفة إقبال » .

الإنسان الكامل عند إقبال

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الحديث عن إقبال يثير كوامن النفس ، فتشتعل حية متحركة طموحة ، يؤجج جذوة الحب فينبض القلب خفاقاً .

الحديث عن إقبال يقودنا إلى التحليق في معارج الإيمان ، فتفور عزيمتنا في سماء المثل الرفيعة ، وتحتوي العوائق وتتخطى الصعاب .

إن الحديث عن إقبال اليوم ، يوم ذكراه العطرة ، يؤنسنا بومضة من بريق روحه الفياضة وتعبر بنا الذكرى حاجز الزمان وتتخطى حدود المكان ، لنعيش معه هذه الأمسيات السعيدة ، ونعايش اللحن الذي كَلَّ عنه الوتر ، والهمة التي لم تزل حاضرة . وكلنا أمل ويقين في أن نغماته لاتزال مستمرة ، وبأن علم أسراره لا يزال ألف قلب يتجه للتلقي من بحره الفياض .

إن هذه الصفحات القليلة ، ليست إلا انعكاساً لشعاع من تجليات روحه الوهاجة ، أحاول العمل في إظهاره من خلالها . وروحه ليست بينها وبيننا حواجز أو حدود ، لأنها فوق الحواجز والحدود . وحديثه دائماً في ربى الأفلاك يحلق ، لأن دموع العشق فاضت منه ، وجرت في لفظه لغة السماء إلى أبناء الأرض والسماء . ولكن ابن آدم تجاوز قدره في غرور دون ارعواء ، فجاء الهتاف إليك أيها الإنسان .

أراد إقبال منك إبراز طبيعتك الخلاقة من تحت الركام ، وكشف الإنسانية الضائعة في خفاياك . ولهذا اتجه إليك مستثيراً فطرتك السليمة ، ومستنهضاً همتك لإبراز ذاتك حتى تبلغ المقام المنشود ، مرحلة النيابة الإلهية .

واسمحوا لي أيها السادة أن أحدثكم قليلاً عن خواطر إقبال حول هذا الإنسان ، الإنسان الكامل الذي أنشده وناشده ونشده .

قبل كل شيء : ما هو الإنسان الكامل ؟ وماذا يعني هذا المصطلح ؟

إن كلمة إنسان من حيث اللغة ، هي خلاف الجان . وتأتي اللفظة في القرآن الكريم لتدل على نشأتين : قبضة من طين الأرض ونفحة من روح السماء .

ويقول الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] . ففيه الصفات الإيجابية كما وصفه الخالق الكريم ، وفيه الصفات السلبية أيضاً .

واستعملت الكلمة من قبل المتصوفة المسلمين قديماً وحديثاً من حيث إطلاق اللفظ ومن حيث المضمون . فهذا ابن عربي ـ الصوفي الأندلسي العظيم ـ يقول : إن سبب التسمية أنس الرتبة الكمالية . وبذلك ربط بين الإنس والإنسان الكامل الذي تتحقق فيه المرتبة الإنسانية ، أي المتحقق بالكمال .

ومن حيث المضمون ، فالتفاضل بين الخلائق يقع في المزاج .

إن حقيقة الإنسان ظهرت عندما أراد الخالق أن يعبد في الأرض ، وهو وحده الذي جمع الحقائق الإلهية ، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يعبده ، ويكون عبده الكامل . فكان مرآة أنست الرتبة الكمالية ، لكمال حقيقتها الجامعة لجميع الحقائق الإلهية والكونية ، ولذلك سميت تلك الحقيقة إنساناً .

إن الإنسانية مرتبة الخلافة عن الله في الأرض ، والخليفة يظهر بما اؤتمن عليه

من صفـات ، ولـذلـك فليس كل فرد من أفراد البشر خليفـة ، والخلافـة تعني النيابة ، وبذلك يتعدد أشخاص الخلائق بتعدد فعل الاستخلاف .

وقـد وردت الكثير من المترادفـات لمفهوم الإنسـان الكامـل عنـد ابن عربي ، سواء من حيث مهمته وطبيعته الميتافيزقيـة ، أو في دلالاتـه نفسهـا في التعبير عن التجربة الصوفية .

أما كلمة الكامل فهي تفيد الكمال بمعنييه الوجودي والمعرفي .

إن الإنسـان الكامل هو محمـد صلوات الله عليـه وسلامـه ، ويفهم من الكلمـة عنـد الصوفيـة مترادف (الحقيقـة المحمـديـة) أو آدم ، أو بعض الرجـال . وتلـك الحقيقـة قطب يـدور في فلكـه كل طـالب للكمـال . فـلا يـزال يـدور ويتحقـق بالصفات المحمـديـة ويـدور ويصغر ، ويصغر قطر دائرتـه حتى يتلاشى القطر في المركز . ويتحقق الطـالب بوحـدتـه الـذاتيـة مع مركز الـدائرة ، أي مع الحقيقـة المحمدية . وعندها يطلق عليه اسم من تحقق به أي (الإنسان الكامل) .

إن الإنسـان طبقـاً للرأي الفلسفي الصـوفي ، جمـع في كـونـه الصغير ، جميـع حقائق العـالم الأكبر ، فهو نسخـة العـالم ، وصورتـه المصغرة . ويضيف ابن عربي إلى هذه الرتبة مجموع الحقائق الإلهيـة . وبـذا فـالإنسـان يصبح نسختـان : نسخـة الحق ونسخة الأكوان . وهذا ماجعل التعريف يضعـه في مركز برزخي بين الحق والعالم . إن وظيفة هذا الإنسان تنحصر في معنيين :

١ ـ عند النظر إلى المعنى الأول للكلمة ، تتحدد وظيفـة هـذا الإنسـان بـأنـه الحد الجامع الفاصل بين الحق والعالم . فهو يجمع بين الصورتين . فيكون حقاً عند ظهوره بالأسماء الإلهيـة ، ويكون خلقـاً عنـد ظهوره بحقيقـة الإمكان . وهو علـة وجود العالم والحافظ له . هذا ماقاله ابن عربي .

٢ ـ أما عنـد النظر إلى المعنى الثـاني للكلمـة ، أي المعنى العرفـاني ، فتتحـدد وظيفته بكونه المشكاة التي يستمد منها كل عارف معرفتـه ، وكل عـالم علمـه . وهو المدد للهمم لأنه برزخ بين الحق والخلق .

هـذه خلاصـة رأي ابن عربي . ويشبـه هـذا التوضيح رأي الصـوفي المعروف عبـد الكريم الجيلي الـذي أثبتـه في كتـابـه الإنســان الكامـل في معرفـة الأواخر والأوائل . ونكتفي بهذا العرض الموجز كي نستبين على ضوئـه مفهوم هـذه اللفظـة عند إقبال . ولكننا لا بـد قبل هـذه المقـدمـة البسيطـة من تبيـان أثر فكر شـاعر الإسلام مولانا جلال الدين الرومي مرشد إقبال الروحي عن الإنسان الكامل .

لقد تغنى الرومي بكرامة الإنسان . ولم يؤيـد الأدب المتشـائم الـذي أدى إلى فقدان الثقة بالنفس والأمل بالمستقبل وضعف الإرادة . إنه يؤكد على أن الإنسان الكامل خلـق ليكـون خليفـة في الأرض ، وهـو يرى أن هـذا الإنسـان خـلاصـة الكون ، يتمثل فيه ماشتَّ في العالم من خيرات ، ومابدا فيه من عجائب وكنوز . إنـه قطرة صغيرة انصب فيهـا بحر العلم . ولنستمـع إليـه وهـو يقـول : « رأيت البارحة شيخاً يـدور حول المـدينـة ، وقـد حمل مشعلاً ، كأنـه يبحث عن شيء . قلت له ياسيدي : تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والـدواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن إنسان في هذا العالم . لقد ضاق صدري من هـؤلاء الكسـالى والأقـزام الـذين أجـدهم حـولي ، فخرجت أبحث عن عمـلاق من الرجال ، وبطل من الأبطـال ، يملأ عيني برجولتـه وشخصيتـه ، ويروّح نفسي ، قلت له : لقد غرتك نفسـك يـاهـذا ، فخرجت تقتنص العنقـاء ، بـالله لاتتعب نفسك وارجع أدراجك ، فقـد أجهـدت نفسي وأنضيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولاأثراً . قال الشيخ : إليك عني أيها الرجل . فـأحب شيء إلى نفسي أعزه وجوداً وأبعده منالاً » .

هـذا الأثر الصوفي ، كان لـه دوراً مهماً في بلورة مفهوم الإنسـان الكامل عنـد

إقبال ومقتضيات وجوده ، والتشمير عن ساعد العزم في البحث عنه ، أملتها الظروف والملابسات ، فعصر جلال الدين الرومي ساد فيه دور الحس ، وغلبت عليه نوازع الاعتماد على العقل ، وتفشي الرهبانية والتواكل ،وبطلان معنى الذات والكرامة الإنسانية ، وأخيراً ضياع المجتمع وتفكك أوصال الأمة بعد غزو التتار . هذا العصر اقتضى البحث عن ذلك الإنسان .

تربية الذات ، إعداد للإنسان الكامل :

يقول إقبال إن الذات أصل الوجود وسره . ونظام هذا العالم . وماهية الذات واحدة وإن تعددت أشكالها . وهي تنبعث وتثور ، وتضيء وتختفي ، وتقتل وتموت وتنبت . وهي حياة هذا العالم ومصدر قوته . وقد اتخذت صوراً مختلفة . الهدف ينبهها ، كما ينميها الأمل . مظهر قوتها عشق الكمال الذي يسحر العالم إذا ما استولى على القلب . إن الثقة بالنفس والاعتماد عليها والسمو بها إلى الكمال مصدر قوتها . ولكن التسول والنسك والزهد الغريب مواطن الخطر في حياتها .

لابد لهذه الذات من مراحل تمر بها حتى تنضج ويتحقق كمالها . ولابد من دورات تدريبية قبل بلوغ الهدف . ويأتي في أول المراحل : التزام الطاعة للقانون الإلهي والشرع القديم . هذه الطاعة ، هي التي تجعل في الجبر اختياراً . وهذا الإنسان الكامل ، وإن كان سوف يسخر العالم ، لكنه يلتزم بالشرع . إن التوفيق بين أوامر الشرع وحرية الاختيار ، هو الطاعة الاختيارية لهذا القانون فقيود الشرع حرية الكمال . ويقول :

ارجعن يا حر دستور قديم زينن رجلك بالقيد الوسيم
شدة في شرعنا لا تشكون وحدود المصطفى لا تشكون

ويقول أيضاً :

بـامتثـال الأمر يعلـو من سفـل | وهـو الطـاغي وإن كان الجبـل
سخـر الأفـــلاك في همتـــــه | وثـوى في القيـــد عن شرعتـــه

يلي هذا الدور مرحلـة رضـا النفس بقيود الكمـال . ويضرب لنـا مثلاً الجمل : فهو يحمل أثقالاً ، ولكنه يسير بصبر وتؤده دون ملل أو كلل :

ألفـــة الكـــد شعـــار الجمـــل | شيمـــة الصبر وقـــار الجمـــل
صامت الأحقـاف يمشي مـاضيـاً | زورقـاً في البيـد يسرى هـاديـاً

ويقول أيضاً :

جمـــل نفســك تربـو بـالعلف | في إبــــاء وعنـــــاد وصلف
فكن الحر وقــدهـــا بــزمـــام | من حضيض تبلغن أعلى مقـــام
كل من في نفســــــه لايحكم | هـــــو في حكم ســــواه مرغم

إن التوحيد المطلق ، هو كفيل بطمأنينة النفس وضبطها على مسار الكمـال ، وعدم الاستكانة للمطامع والشهوات . إن عـدم خوف الموت والفقر ، وثيقـة مرور إلى هذا التوحيد . أما حب المال والجاه والزوج والولـد والبلـد ، فهي معيقـة عن الارتقاء . وهي مفتاح الأنـانيـة . أمـا حب الله والرسول فهو حب الكمـال وحب المثل الأعلى ، وهما مفتاح النجاح . العطاء والفداء عنوان الغيرية .

ثم ينتقل إلى المرحلـة الثـالثـة ، مرحلـة النيـابـة الإلهيـة ، مرحلـة الإنسـان الكامل ، التي تجعله خليفة الأرض . ويقول :

إيـه يـافـارس طرف الـزمن | إيـــه يـــانـــوراً بعين الممكن
مـوكب الإنسـان هيـا زيّن | وتمكن من ســـــواد الأعين
جـددن في النـاس قـانـونِ الإخـاء | وأدرهـا كأس حب وصفـاء
أبلغ النـاس رسـالات السـلام | وأعـد في الأرض أيـام الوئـام

إنه الإنسان ، الذي يبعث الشباب في الكون والناس ، فيكون بشيراً ونذيراً وراعياً وأميراً .

وهذه المرحلة هي الدور النهائي الذي يبلغه الإنسان بوصوله إلى مرتبة الإنسان الكامل . وعندها يكون هو المجدد لهذه الأمة .

ومرة أخرى نعود لاستعراض بعض تأثيرات الفكر الصوفي الإسلامي في بلورة هذه الفكرة . إن الإنسان الكامل عبد الله . والعبودية هي أعلى حالة وصل إليها النبي ﷺ ، إذ أتيح له الوصول إلى أعلى مقام حيث ارتفع الحجاب . وكلما اقترب الإنسان من حالة (عبده) ، كان أقرب إلى بلوغ مرتبة (عبد الله) مرتبة الحرية أي مرتبة الإنسان الكامل . ولكن إقبال يرى أن العبودية لغير الله هي من أكبر الشرور في العالم . وأنه لا يمكن أن ترتقي شخصية الإنسان ، إلا في جو من الحرية ، وأن كافة أشكال العبودية تحول دون رقي البشر وتقتل الحوافز .

وفي مجال حديثه عن الإنسان الكامل والنيابة الإلهية ، يبحث إقبال عن مسألة النبوة . ويركز على دور النبي في قيادة الأمة المسلمة ، ونجده يتخذ منحى شبيهاً بالخط الذي سلكه بعض المتصوفة وقادة حركة التجديد الإسلامي أيضاً . فشاه ولي الله الدهلوي يعلن أنه دعي ليكون المجدد المطلوب في زمانه ، كي يقود جماعة من الأمة المرحومة إلى الخلاص ، وهو قد دعي ليكون نائباً للنبي . ويسلك الداعية المسلم (خواجه ميردرد) المتوفى عام ١٧٨٥ م ، والذي ترعرع في أحضان الطريقة النقشبندية المنحى ذاته عندما يقول : « زهرة العالم تذبل إذا ما ذبلت نفوسنا ، وقلب الإنسانية يتجمد إذا ما تجمدت نفوسنا ، إننا نصوغ العالم ، ويصبح العالم هباء إذا ما أدركنا الموت ... » إنه يرى نفسه مدعواً من قبل الرسول ﷺ ، كي يعود بالمسلمين إلى القرآن والسنة المطهرة . وهاهو إقبال يراوده إحساس شبيه . ففي ديوانيه (رسالة المشرق) و (جاويدنامه) يتحدث عن النهر الحي الذي يمتلئ بغيث الرحمة الإلهية ، والذي أرسله الله رحمة للعالمين ،

فيهب الحياة للأرض الميتة ، مشيراً إلى دوره كشاعر في قيادة المجتمع . وهو يلوح إلى مذهبه الجديد وكأنه شمس جديدة طلعت ويقول :

قطع الليل على الصبح السفر   فهمى دمعي على خد الزهر
غسل الدمع سبات النرجس   وصحا العشب بمسرى نفسي

ويقول :

إنني شمس قريب المولد   حبكاً في فلك لم أعهد
أنا لحن دون ضرب صعداً   أنا صوت شاعري يأتي غدا

وهكذا يتبين شعوره بحمله (رسالة الغد المشرق) ، واعتزازه وثقته بنفسه ، وأنه مجدد لم يفهمه إلا القليل .

الآن ما هي العناصر التي يجب أن تتوفر في مسيرة الذات الإنسانية التي تنشد هذا المقام الرفيع (مقام الإنسان الكامل) ، وما هي العوامل التي تزيد من قوتها ؟ ويحدد هذه العوامل بثلاث :

١ ـ الحركة والجهاد المستمر .
٢ ـ العمل وتدبير المعيشة .
٣ ـ طرد الخوف .

ويكمن خلف هذه العوامل الثلاثة : معرفة النفس ، والتجرد من جاذبية شهواتها ، والإقلاع عن أغراضها ، وعدم التوجه إليها بالعبودية التي هي الحجاب الأعظم ، ويقول : إن عبودية الشهوات حجاب له براقع عدة ، أبرزها برقع الغرور بالعلم . أما عشق الكمال ، فهو الدافع الأساسي والحيوي لتزكية النفس وسموها وعندها تتفتح الأسرار .

إن اختراق المصاعب والأهوال ينشئ الذات القوية ، التي هي وحدها مؤهلة

لبلوغ مرتبة النيابة الإلهية . ويقول في حضه على طرد الخوف : « اطلب ماء الحياة من بريق الخنجر ، ومن فم التنين ماء الكوثر . » .

أما الحركة والجهاد المستمر فيتحدث عنها . ويبرهن على هذا العامل وعلى قيمته في إبراز قوة الذاتية بسرد بعض القصص التي تدعم رأيه . ويتخيل محاورة تجري بين جبال الهيملايا الشاهقة ونهر الغانج . ويبين عدم جدوى القمم العالية والرفعة والوقار بلا سير أو حراك ، أمام حركة النهر المستمرة . فالحياة هي السير المستمر والعمل المتواصل . وعندما يتكلم عن العمل وتدبير المعيشة كعامل في تقوية الذات ، يسرد قصة الناسك الهندي والشيخ المسلم . وخلاصة المحاورة التي جرت بينهما تتلخص بنصيحة الشيخ للناسك بالنزول إلى أرض الواقع وممارسة الحياة وتدبير المعيشة مع التفكر في أقطار السموات والأرض . إن هذه العوامل الثلاثة ، تبقى قليلة الجدوى ، إذا ما أهمل التجديد ، واستمر العمل بالتقليد ، وهذا ما يؤدي بالمسلم إلى اشتعال مسجده من شرار الدير ، واحتراق محفله من سراج الغير ، كما يجعل من نفسه بتقليده لغيره ، هدفاً تناله أسهم الأعداء وهو يقول : « إننا نرى كعبتنا مليئة بالأصنام ، والكفر يضحك من الإسلام ، وشيخنا من عشقه للأصنام قامر بالإسلام ، وغفل عن حاجات أمة الإسلام . أما الوعاظ والمتصوفة ، فأضاعوا حرمة الملة البيضاء ، وعبدوا المناصب ، وتاجروا بالفتاوى ، ليكونوا سدنة بيوت الأصنام » .

لا بد لهذه الذات الإنسانية أن تمر بمراحل السلوك السابقة ، حتى تتكامل قوتها وتصل إلى المنازل المنشودة وحكم الدنيا وتطبيق الدين ، فما هو مظهر قوتها ؟ إنه عشق الكمال ، القوة التي إذا ما استولت على القلب سخرت قوى العالم ، وازدرت ـ أسلحة الدمار التي يكدسها شياطينه . إن عشق الكمال هو السيف الحقيقي وماء الحياة ، وفي هذا المجال يقول في محاورة جرت على لسان المريد الهندي والمرشد الرومي :

المريد الهندي يقول : الذاتية تنشد مقامها في السماء ، وتفترش الشمس والقمر ، ومع ذلك فهي متألمة من قيود العبودية بلا حضور مع الله ولا فراغ من سواه .
المرشد الرومي يجيب : الذي يبلغك الهدف هو عشق الكمال وحده . إن العشق والحرقة يتولد من خبز الحلال ورزق الحلال .

هذا العشق تتمثل قمته في عشق الرسول صلوات الله وسلامه عليه إذ ينشد :

عشقه في القلب ناراً أسفرا للثريا يرتقي منه الثرى

إنه المثل الأعلى الذي عشقته ذرات الأرض ، فصعدت وارتقت من الوجد ، وأنارت ماحولها . وبكى الجذع العاشق لفراقه . إن عشق الرسول هو الذي يظهر القوة في ذاتنا ، إنه الذريعة الوحيدة لأحكام الذاتية ، وهو الذي ينشئ ثباتاً في الحياة ، وثقة في المستقبل ، حتى بعد الرحيل من هذه الحياة الدنيا . وهو أعلى من الزمن والجوهر الحقيقي للروح .

صفات الإنسان الكامل :

١ ـ **الإيمان** : إن الوجود الإيماني للمسلم مرهون بحمله الرسالة ، رسالة الأنبياء ، والحياة من أجل مبادئها . وعندها يصبح سراً من أسرار الحق وركيزة من ركائز العالم . فيجدر به العيش ، ويتحقق على يديه النصر . ويقول في هذا المجال : « إن إيمان المسلم نقطة دائرة الحق ، وكل ماعداه في هذا العالم المادي وهم ومجاز » . ويقول أيضاً في مكان آخر : « إن دوران الدهر هذا خالد وباق ، والحقيقة الواحدة هي أنت ، فكن ابن وقتك . الماضي لم يسترجعه أحد ، والمستقبل لن تضمنه واليوم الحاضر هو وقتك » .

هذا الإنسان المؤمن ، لاتقل حاجة البشرية إليه ، عن حاجتها إلى الماء والهواء والنور والدفء . إن أشكال الحياة إذا ارتبطت بهذه العوامل الأربع ، ارتبطت معانيها بالإيمان والروح والأخلاق والأهداف . تلك المعاني التي تكفلت

رسالات الأنبياء بشرحها ، وتكفل المسلم بإعلانها والجهاد من أجلها . ولولا هذا المسلم لضاعت هذه الغايات والرسالات ، إن الإنسان مركز هذا العالم . وما استمراريته إلا كاستمرار الشمس والكواكب . إن بقاءه مستمر رغم انقراض الدول والمدنيات والحضارات والأجيال .

٢ ـ **خلود الحياة :** إن خلود الإنسان يبدو في صور مختلفة . فالنهر المنحدر من أعالي الجبال ، تتفرق قطراته في السفوح ، فتخاله لم يبق منه شيئاً . ولكنه يبدو بعد قليل في الغابات أو تراه يسقي الأعشاب ، متجلياً كأنه نهر الحياة الهابط من السماء ليغيب بعد حين ثم يظهر في مجرى الخلود .

ويقول أيضاً : « إن النجوم التي تنير منذ ملايين السنين ، عندما نقارنها مع الإنسان الذي هو أبعد نظراً ، وأعلى قيمة وشرفاً ، والذي هو أعلى من مقام الملائكة ، والذي من أنفاسه يتجلى النور في محافل القدرة ، والذي حمل الأمانة ، التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . هذا الإنسان هل يفنى في لحظة ؟ وتحيا هذه النجوم كل هذا العمر المديد ؟ هل هو أدنى من هذه الذرات اللامعة ؟ هل تبقى هي في لمعانها ويمحي ضوءه في لحظة ؟ ويقول في موضع آخر : « إن هذا الإنسان لا يصعق يوم ينفخ في الصور ، لأن الروح أصبحت قادرة على احتواء النفس والاتصال بالذات المحيطة ، فتكون كما جاء في الآية الكريمة وصف رؤية النبي للذات الأولى ﴿ ما زاغَ الْبَصَرُ ومَا طَغى ﴾ [النجم : ١٧] . وهذا هو المثل الأعلى للإنسانية الكاملة في الإسلام .

إن النفس قد تلمح أوجهاً من الحقيقة جديدة في حالة البرزخ . وتتهيأ للتكيف مع الوضع الجديد ، أما النفس الكاملة الرشيدة ، التي كسبت في إيمانها خيراً ولو كان على أساس نظام مكاني زماني معين ، بل تتماسك لا يأخذها سبات عقب الموت ، وتترقى حتى تفوز بالبعث الذي يكسب الإنسان حدة في البصر .

إن هـذا المسلم ، يحمـل معنى الحيـاة والتجـدد المستمر ، لأنـه يحتضن أمـانـة خالدة ، ويعيش لغاية خـالـدة . وفي هـذا الصـدد يقول : « لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم ، لأن وجوده رمز لرسالات الأنبيـاء . وإن أذانـه إعلان للحقيقـة التي جاء بهـا إبراهيم وموسى وعيسى ومحمـد ، عليهم صلوات الله أجمعين » . ويقول في موضع آخر « إن المسلم رسالة الله الأخيرة فلا يعتريها النسخ والتبديل » .

وهكذا فالإنسـان الكامل يمثل موجـة من موج بحر الإسلام المتلاطم ، تليهـا موجة ثانية وثـالثـة ورابعـة وهكـذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا . إن بحر الحياة يبقى ثابتاً لا يتغير . لأنه امتداد دائم وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة . وهكذا تتبدل الأفراد ولا يتغير الكيان .

٣ ـ **قيـادة العـالم وتوجيهـه :** إن المـؤمن خلـق ليقـود العـالم ، ولكن ليس عن طريق الحروب أو استعمار الشعوب . إنـه أبي لا يستسلم ، وعزيـز بـالله لا يخضـع إلا لوجهه الكريم . إنه لا يندفع مع التيار ، ولا يساير الركب البشري حيث سار.

هذا المؤمن ، تقع على كاهله أمانة قيادة البشرية إلى شـاطئ الخير والسلام ، لأنه صاحب رسالة وعلم ويقين ، ولأن مقامه مقام الهدى والإرشاد والقيادة . قال إقبـال : « يقـول من لا خـلاق لـه ، در مـع الـدهر حيث دار ، وإذا لم يسـالمـك الزمان فسالمه ، وأنا أقول : إذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحـاربـه حتى يفيء إلى أمر الله » .

إنه يرى أن المؤمن مكلف بمقـاومـة الأوضـاع الفـاسـدة ، وإرجـاع الحق إلى نصابه وتقويم الانحراف ، ويقول : « على المسلم أن يربي في نفسه الروح ، وينشئ في هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ، ووهج حياته ، وينشئ عالماً جديداً » .

ويقول أيضاً : « سألني ربي : هل ناسبك هذا العصر ، وانسجم مع عقيدتـك

ورسالتك ؟ قلت : لا يا رب . قال : فحطمه ولا تبالي » . أما الاعتذار بالقضاء والقدر ، والخضوع والاستكانة ، فهو من شيمة الضعفاء العاجزين . ويقول في هذا المجال : « المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوي ، فهو بنفسه قضاء الله الغالب ، وقدره الذي لا يرد » .

٤ ـ **العلم والروح العلمية** : إن الإنسان الذي يتخذ العلم منهجاً ، يتمكن من السيطرة على الطبيعة . وفي هذا الصدد يقول : « إن فكر الإنسان يسبح في العالم ليسخر قواه ، ويتصرف فيه فنون التصرف . فاركب الهواء ، واصعد الجبال ، واستخرج اللؤلؤ من البحار . إن هذا العالم سخر للإنسان ، وإن للإنسان فيه جهاداً . وإن لذة الإنسان وكماله في هذا الجهاد » .

ويؤكد إقبال على وجوب استخدام علوم أوروبة من قبل هذا الإنسان ، كأداة لخدمة الإسلام . شريطة الاعتماد على قوة الروح ، وعدم الالتفات لمظاهر الغرب الزائفة فيقول : « إن ظاهر الفضة ، وإن كان أبيض براقاً ، فإن لمسه يصبغ اليد بالسواد . إن فراخ الطير ، التي لم تستكمل إنبات ريشها ، تصبح طعاماً للهرة لو حاولت الطيران » . وهو يؤكد على أن علوم الغرب ليست شراً بذاتها ، ولكنها إذا ما اتجه بها شطر المادة لخدمة الجسد ، تصبح ثعياناً يفتك بسمومه القاتلة .

٥ ـ **الإنسانية العالمية** : يرى إقبال أن المسلم حقيقة عالمية ، لا ينحصر في حدود الجنس والوطن ، وهو يتحدى حدود الزمان والمكان ، وينتشر عبر مساحة زمانية شاسعة مداها مدى تاريخ الإسلام ، ويمتد في مساحة مكانية واسعة ، كامتداد العالم الإسلامي بل العالم ككل . وفي قصيدة قرطبة يقول : « إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، ليست دجلة والنيل والدانوب ، إلا أمواجاً صغيرة في بحره المتلاطم . عصوره عجيبة ، وأخباره غريبة ، نسخ العهد القديم وغير مجرى التاريخ . هو في كل عصر ساقي أهل الذوق ، وفي كل

مكان فارس ميدان الشوق . شرابه رحيق دائماً ، وسيفه ماض في كل معركة » .

ويقول أيضاً مخاطباً المسلم : « لو تقدم نسل المسلم على الدين ، تطير أنت من الدنيا ، كما يطير غبار الطريق إلى أن يحكم أساس الخلافة في الدنيا مرة أخرى ، ابحث عن قلب الأسلاف وكبدهم في مكان ما » .

ويقول أيضاً :

أأفغـان وتتـار وترك ... وفي مرج ومن غصن نمونا
حرام بيننا تفريق لون ... ربيع واحد فيه زهونا
رأيتك لاتزال أسير طين ... إلى ترك وأفغان ترد
أنا بشر بلا لون وريح ... وللتوران أو للهند بعد

هذه هي النزعة الإنسانية لكن أمله من الإنسان الكامل ، أن الأخوة البشرية عامة ، هي الأصل الكبير الذي تلتقي فيه الأخوّات جميعاً ، وعلى البشر أن يلتفتوا إليها ، ويتحرروا من أسر الطين الذي يقيد الروح .

٦ ـ **الخلافة** : إن هذا الإنسان ، مركز الوجود وغايته ، من أجله خلق هذا الكون ، وهو خليفة الله في الأرض . عليه ترتيب تبعات المجاهدة لإقرار العقيدة . وعنه يقول محمد إقبال : « إن العالم تراث للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد . ولا أعد مؤمناً كاملاً من لا يعتقد أن العالم خلق له » .

إن الإنسان في حس إقبال ، طاقة يتمثل فيها الوجود ، إنه قبس من نور الله ، فهو بهذا المعنى خليفة الله في الأرض ، وهو أثمن ما في الوجود ، عندما يستمد من نور الله . وهكذا خلقت الروح الإنسانية ، تستمد من قوة الأزل والأبد ، فتشرق مشتعلة . وهكذا فالحياة هي دائماً في اشتعال لا من حيث الحقيقة المجردة ، بل من حيث المعاناة والشعور .

المرأة والزمن في تجديد إقبال

أبواب البحث :

١ ـ مقدمة ورد تحية .

٢ ـ العلاقة بين خودي وخدا .

٣ ـ الثقافة من النار إلى المرأة .

٤ ـ القراءة المقارنة بين المتنبي وإقبال .

٥ ـ قدوة النساء الكاملة وطموح إقبال التربوي .

٦ لاموت في الحجاز .

الدكتور أسعد علي

الدكتور أسعد علي

● ولد الدكتور أسعد علي سنة ١٩٣٧ م ، وتابع تحصيله العلمي في اللاذقية وحماة ودمشق ، حيث نال إجازة الحقوق سنة ١٩٦٢ م .

● انتقل بعد إجازة الحقوق إلى لبنان ، حيث عاش حقبة امتدت حتى ١٩٧٥ م ، مارس خلالها التعليم في مدارسه الثانوية فالجامعية ، وسافر أثناءها إلى إيران فنال سنة ١٩٦٧ م من كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية بجامعة طهران شهادة الدكتوراه في الأدب والعرفان بمرتبة الشرف الأولى ؛ كما أنه بعد عودته أعد في جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت ، دكتوراه ثانية في الفلسفة نالها بمرتبة الشرف الأولى ؛ أصدر خلالها عدة كتب تعليمية وطالبية .

● بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ في سوريا والكويت ، وقد أنتج خلال هذه الحقبة عدة مسلسلات ومحاورات ودروس إذاعية وتلفزيونية ، إضافة إلى كتب أخرى أكاديمية .

● عام ١٩٨٠ م سافر إلى أوروبا حيث أسس مع مفكرين مستشرقين ومغتربين (الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية) . وقد بقي في أوروبا حتى العام ١٩٨٣ م حين عاد إلى دمشق وما يزال فيها حتى اليوم أستاذاً لمادة (فن الكتابة وبلاغتها ونقدها ومناهجها) في كلية الآداب بجامعة دمشق .

● يُعرف في سلوكه وفي أدبه باتجاهه الصوفي العرفاني ، وقد أنتج في هذا الميدان عدة كتب .

● يشتهر بوفرة إنتاجه وغزارته ، في التفسير ، واللغة ، والأدب ، والإسلاميات ، والشعر ـ قريضه ومنثوره ـ والمسرحيات ، وشؤون التعليم والطلاب ، والتربية ، والنحو ... حتى عُدَّت له عشرات الكتب ومئات المقالات ، ووُضعت عنه دراسات وأبحاث . من أبرز أعماله : (في أضواء القرآن) وهو سفر في ٢٤ كتاباً يسبقها كتاب هو مقدمة لها ، و (أساسيات النحو العربي) .

مقدمة ورد تحية

تحيةً لدعاة الأدب الإنسانيّ المنافع ..
وتحيةً لمن كتبوا لنا انطباعاتهم حول مؤتمر تكريم إقبال في دمشق ..
وتحيةً للمهتمين بالأهمّ مما يجري في العالم ..

وهذه التحيات : صيغٌ من ردّ التحيةِ ولو بأقلَّ منها ؛ فما مرَّ وقتٌ قصير حتى التُقط مِن مؤتمرات دمشق الأدبية : ما اعتُبِرَ من مختارات (السبر الأدبي) للاتحاد العالميّ للمؤلفين باللغة العربية ، في فرنسا .. وقُرِن حديث إقبال والمتنبي بالربيع ، تعليلاً للتفتحات اللغوية التي اشتقت من المقارنة بين قصيدة (الخَود) للمتنبي وبين (أسرار ورموز) وعلائق (خودي = الذات الإنسانية) ، (بخدا = الذات الإلهية) ...

وفي هذه الفترة أدخل أحمد سليمان : (محطة باكستان في ظل المثل الأعلى) إلى أطروحته الدكتورية ... كما كتبت أمل منجد : انطباعات الجيل الجامعي حول أيام المؤتمر الثلاثة .. ومثلها فعلت شعراً ، ميسَّر العسلي .. وتجاوزت إحداهن ذلك إلى مستوى آخرَ من التعبير عما كُشِفَ لها ، فقالت فاطمة الصباغ ، فيما قالته :

كانت الحال متوهجةً مضيئة ، سُقِيَتْ بها روحي ، وروَّتْ ظمأها ، لقد شق المعدن ، إنني أرى الماء حقيقةً ، لقد تلاشى كل شيء ماعدا نور مضيء وهاج ، وفي وسطه روح تتحدث .

نعم أحببنا الشريف الرضيَّ ، وتكهربنا للوصلة الزمانية بين عصر وعصر ،

لكن إقبالاً على القلب أقبل ، فهز أرواحنا ، رغم عدم تهيؤها . ولتوهُّج النور شدَّة : أغمضتُ عيني ، لكن ذلك لم يحجب عين الرؤية ، وعدت هائمة إلى عند هيام أردد : ماأروع ماسمعت .

فليستجب الله لإقبال : تشاركهُ أنت بحرقنا بالنار ، هذه النار .

وليستجب الله لمشاركتي إقبالاً بموتنا في صميم الحجاز .

أكتفي بهذا الجزء اليسير من بعض ماأحدثه مؤتمرُ إقبالٍ من تأثيرٍ وردودٍ فعليةٍ في نفوس جيل من الجامعيين ، في سورية ، وفي اهتمام مؤلفين عالميين ، خارج سورية، وأترك لأصحاب المؤتمر مابقي .

وما بقي مثير للغاية ؛ فحول ماسمي : (وصلة زمانية في مؤتمر الرضي) : جمع مما كتب حوله أكثر مما قيل في المؤتمر ، وسُمِّي ماجمع : (هديل الأرواح بين زمزم وكربلاء) .

ومع ذلك فالذي حصل مع إقبال : تجاوز ذلك التأثير .

أمَّا حديثي : (المرأة والزمن عند إقبال) ؛ فهو من تجارب (القراءة المقارنة) ، فيما أسمِّيه (الحديث المباشر) .. وأعني الاعتماد على مقتضى الحال من مستويات الحضور .

وجمهور إقبال في مكتبة الأسد : ضمَّ مستوى راقياً من الباحثين والشعراء ، ومن الحضور ، وأدعُ الأسماء .

لذلك استثرتُ من آثار إقبال ما يُلبِّي تنوع المستويات بصورة خاطفة ، وضعت لها تسمياتٍ ، فيما بعد ، هي :

١ ـ مستويات **العلاقة** بين الإنسان وخالقه .

٢ ـ نسبة **الثقافة** إلى الحبِّ .

٣ ـ القراءة **المقارنـة** بين إقبـال ، فيلسوف الشرق ، وبين المتنبي العـارف ، وعرفان المتنبِّي كان مفاجئاً ؛ لذلك وضِع في إطار واسع من المقارنـات اللغويـة : عربياً ، وأردياً ، وفـارسيـاً ، وانكليزيـاً ، وفرنسيـاً ، ومن كلمـة أو كلمتين . كما عُمِّقَت مقارنات الفهم لمراتب النفس وألوان مقاماتها ، ووثّقَ ذلك برغبة إقبـال في التجديد الأدبي ، وبحيرته في زمان القلب .

٤ ـ **قدوة النســاء** الكاملـة وطموح إقبـال التربوي . وهـذا المستوى الأرقى الذي أحببت التوجيه إليه من المقدمة التي سميتها : مستويات وعي إقبال ..

٥ ـ لا موت في **الحجـاز** . وهـذا عنوان الخـاتمـة التي بحت بهـا بخصـوص من معاني الكلمة ؛ ليكون الأنفع الأعمّ ؛ وأردتهـا تجربـة نجحت ، بفضل الله ، كما دلت الدراسات والرسائل التي وصلتني بعد ذلك .

وإني أرجو : أن يكون لهذا البحث من مستويات القراء كالـذي كان لـه من مستويات الحضور ، فهو حديث : **المرأة والزمن** ، ومعها **الحيرة** الإقبـاليـة .. وفوق كلِّ ذلك : **تطل اللغة الأمُّ ؛** لتقول للبنات والأبنـاء : **لا يصحُّ أن يجهَلَ أحدٌ أمَّه .**

العلاقة بين خودي وخدا

﴿ خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ٢] .
﴿ عَلَّمَ الإنْسانَ مالَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] .

وأترك لكم رفارف الآيات ، من قبل ومن بعد ، فهي فيكم فاستحضروها .

﴿ خلق الإنسانَ من عَلَق ﴾ علقت إقبالاً ، عمره ، في **محاولة الكشف عن العلاقة بين (خودي وخدا) ..** بين خودي (الذات الإنسانية) ، وبين خدا (الذات الإلّهية) .

فإذن (الْعَلَقْ) عَلَّقتْ إقبالاً .. وعلقت محبوب إقبال بقلوب من يحبونه . لكن كيف نقرر هذه العلاقة ؟

كيف نقرر **مستويات هذه العلاقة ؟**

كيف نقرر مستويات هذه العلاقة بين إقبال ، الذي هو (خودي) أو الباحث المستشعر لخودي فيه ، وبين إقبال العالق التائق إلى (خودا) الذي خلق الإنسان من علق .

كانت الرحلة مع مستويات إقبال : لاتقل عن **مشكلة (هملايا) مع (نهر الغانج)** كما يعرضها هو في ديوانه (أسرار ورموز) ؛ فبينهما : مشكلةُ مَنِ الأعظم ؟ الماءُ الجاري أم الجبل الثابت ؟ (أسرار : ٥٢ ـ ٥٤) .

قلت : كانت الرحلةُ مع إقبال في مستوياته هذه كرحلة النهر مع الجبل .. لكن اتفقنا على أمر ؛ وهو منه أيضاً ؛ هو يقول :

أحذرك لاتجرحن قلب فقير

اتفقنا على أن يذكرني كلما أوشكت أن أجرح قلب فقير ، وأنبهه كلما رأيته يجرح أو يحاول أن يجرح قلب فقير .

إذن ، مسألة **كشف العلاقة بين خودي وخودا ، هي : قضية إقبال .. وهي قضية مستويات .** وبهذه المستويات : تجنبنا أن نجرح قلب فقير ؛ وكل مرة كان قلبي يريد أن يقول شيئاً في وجه إقبال ، عندما يقسو على حافظ شيرازي مثلاً ، أو عندما يقسو على محيي الدين بن عربي ، أو عندما يتناول التصوف تناولاً سريعاً في البدايات ، يرفع لي اللافتة : (أحذرك لا تجرحن قلب فقير) ، **ويقول : « أنا قد تنبهت ؛ فقد لقيت شيخي ، وأحرق كل شيءٍ كنت تريد أن تحرقه » .**

لقي جلال الدين الرومي ، نعم ، بحلُم ؛ فغير لقاؤه بجلال الدين كل شيء .

لكن ما هي المستويات ، فعلاً ، التي مرَّ بها إقبال ، في وعيه لمسألة العلاقة هذه ؟

أنا أقول بترتيبها : كان يترق ، أو يرقى بالقراءة باسم ربِّه الذي خلق الإنسان من علق ، ولكنني وجدت أن أرقى رقيٍّ إقبال ، هو ذلك الذي بحث فيه المرأة ، أو تحدث فيه عن المرأة ، **وحديثه عن المرأة هو آخر ما في ديوانه تقريباً . لماذا هذا أرقى المراقي التي وصلها ؟!**

الثقافة من النار إلى المرأة

مسألةُ أنه مثقَّف : كنا في لبنان ، عندما نديرُ حديثَ الثقافة ، نعتبر الدكتور محمد إقبال من الطبقة الأولى ؛ وكان بعض المصنفين يقول : **هو واحد من عشرة مثقفين ، في الصف الأول ، منهم :** في الهند (نهرو) ، وفي لبنان (كمال جنبلاط) ، و (سعيد عقل) ، و (عبد الله العلايلي) ، ومنهم في سورية (عمر أبو ريشة) ، إلى آخره ...

لكن ثقافة إقبال **هل كانت كلَّ شيء ؟**

بعد رؤيته لجلال الدين الرومي : تغيَّرت الأمور ، وهو يشرح التغيُّرَ في (أسرار ورموز) ؛ فقد بُصِّرَ بنارٍ فيه ، وبُصِّر أنه **ينبغي لهذه النار أن تحرق ثقافاته ليُضيءَ زيتُ القلب .**

ومما رواه لنا : قصة الجَدِّ الروحيِّ ؛ أعني شيخ جلال الدين **المعروف بشمس الدين تبريز .**

يقول إقبال : إن شمساً جاء بأمرٍ من شيخه كمال الدين ؛ فزار جلال الدين الروميّ ، الذي كان كبير المثقفين في عصره .. كان يعرف أفلاطون وسقراط والثقافات الفلسفية الكلية .

عرض إقبال القصة بصورةٍ مؤَثِّرة ؛

فقد اعتد الروميُّ بثقافته ، وصرخ بوجه شمس ، لكنَّ شمساً حدق بجلال الدين حتى أشعَلَ فيه نار الحبِّ المحرقة ؛ فانقلب إلى شخصية قلبانية أخرى .. وكان على مشارف الأربعين .

في تلك المعركة بين نار القلب المنبثقة من عيني شمس الدين تبريز ، وبين الفحم الذي كان في فلسفة جلال الدين : خُلِقَ جلالٌ من جديد . في تلك المعركة ، لحسن الحظ ، غُلِبَ جلال المثقّف ؛ فانتصر ، غُلِبَ الفحمُ : فانتصر ، وصار نوراً بعد أن كان ناراً . [ص ٥٨ ـ ٦٠] .

عرض إقبال قصة اللقاء بصورةٍ مذيبةٍ . وأعترف أن قراءتي المجدَّدة لها : شرحت لي فرحاً ما كنت أعرف لماذا شعرت به ، يوم أُحرقت مكتبتي في لبنان ؛ منذ عامٍ تقريباً : حملوا إليَّ شيئاً من رماد مكتبة جمعتها بعشرين عاماً ، فشعرتُ بفرحٍ غامرٍ ، لكنني لم أفسِّرْ ذلك الفرح ، أما عندما قرأت هذا الحوار مجدَّداً : أحسست معنى الفرح الغامر اللاشعوري الذي هزَّني عندما رأيت رماد الكتب وصور الحريق في مكتبة دلّلناها بعين الجديدة .

إذن هذه الحرائق الشمسية : أوصلت جلال الدين إلى تحرُّره بالفطرة العاشقة من الثقافة الجامدة ؛ فكان جلال الدين المحب . وصار صوفيَّ العالم المقتدى ، واقتداهُ تِلميذهُ ومريده محمد إقبال . فتأثر بمثنوي جلال ، وهو ملحمته الروحية العظمى .

في (أسرار ورموز) : نرى هذا التأثُّرَ ، وقد افتتح المنظومتين : أسرار إثبات الذات ، ورموز نفي الذات ، بأبياتٍ من شيخه ، ثم وسَّطَ بينها وبين كلامه : ببيتٍ من (نظيري النيسابوري) في (الأسرار) وببيت من عرفي الشيرازي في (الرموز) ، ثم بدأ هو ، وهذه ملاحظة قد يجتلي مغزاها المجتلون .

حديث إقبال وتأثيرُ جلالٍ : مسألةٌ بيِّنةٌ وشرحُها يطول .

لكنني قلت : إن ذروة ما عند إقبال ، من الوجهة الاجتماعية والتربوية ، هو حديثه عن فطرة المرأةِ وقدوة النساء الكاملة ، لأن الوجهة البقائية هنا ، أعني : كيف يمكن للذين في قلوبهم رسالة أن يبلغوها بلاغاً يستمر أبدياً .

لقد استطاع إقبال في آخر (الأسرار والرموزَ) :أن يعبر تعبيراً حقيقياً وواقعياً عن هذه المسألة .

ومع ذلك لا بد من الوقوفِ مع بيت واحدٍ من أبياتِ إقبال : نظهر فيه العلاقة بين (خودي وخدا) ، بين الذات الإنسانية وبديعتها أو مبدعتها الذات الإلّهية ، أليس ذلك هو (العلق) بِراقٍ من مستوياته ؟

كنا من ثلاث سنوات ، في ضيافة إقبال وجلال الدين وسادة آخرين ، كنا ندير ونستدير أحاديث هذه العلاقة في مجالس اهتمامات صديقنا علي حسون ؛ الذي كتب عن إقبال كتاباً في (فلسفته وحياته) ؛ ولعلَّ الدكتور علي حسون ، هو السوري الوحيد الذي أنجز مثل هذا الإنجاز لإقبال .

أتحبُّون الدخول إلى مختبر (القراءة المقارنة) ، ونجرِّب على بيتٍ واحدٍ : نختاره موحِّداً بين التفرعات جميعاً ، وهل يمكنُ ذلك ؟

القراءة المقارنة بين المتنبي وإقبال

على أي حال نأخذ بيتاً واحداً من إقبال : ونقرأ ما ينبغي أن يقرأ منه بكيفية منهجية تعادل فنَّه وتقرب فكره ؛ فلنجرب معه ، يقول :

برگرفتم پرده أز راز خـودي   وَانَمُـودَمْ سر إعجـاز خـودي

ما معنى مثل هذا البيت ؟

ترجمه عبد الوهاب عزام ترجمة طيبة فقال :

فرفعتُ الستر عن سرِّ خـودي   فبدا الإعجـاز من أمر خودي

كل مستويات إقبال في هذا البيت ، تمـامـاً ، كما أنَّ كلَّ الأغصـان تتفتح من جذع الشجرة ، ومترجمه يقول : إنـه أبقى كلمة (خـودي) في الشطرين ، كما جاءت في الأصل ، ومعناها (الذاتية) ، وهي أساس فلسفة إقبال .

ولعلَّ أعظم من ترجم هذا المعنى هو المتنبي ، مع أنه قبل إقبال بزمن بعيد .

وقد يكـون غريبـاً أن يُـدعَى المتنبي ، أو أن يُشرِّفَ إلى مـائـدةٍ من هـذا النوع ، والمتنبي عادةً ، لا يُذكَرُ في مثل هـذه القضـايـا العرفـانيـة . فكيف ترجم المتنبي لإقبال معانيه العرفانية إذن ؟

يقول المتنبي في واحدة من قصائدة :

جلا اللونُ عن لونٍ هـدى كلَّ مَسْلَـكٍ   كما انجـابَ عن لـون النهـار ضَبـابُ

في ألوان المتنبي الثلاثة : يَظهر للمتأمِّلِ مُجْمَلُ التفـاصيل التي بَسَطهـا إقبـال في ديوانه (أسرار ورموز) ، لذلك نحتك قليلاً ببيت المتنبيِّ لنستشفَّ السرَّ فيـه ،

أعني أننا نريد ترجمة المتنبي إلى العربية أوّلاً ، وبعد ذلك تظهر ترجمة إقبال عبر المقارنة ، أو إذا شئتم ، عَبْرَ ما نسِّميه : القراءة المقارنة .

(جلا اللونُ عن لونٍ هدى كلَّ مسلكٍ) .

في هذا الشطر لونان : أولهما جلا ، وثانيهما : هدى كل مسلك ، ومَن يَدَّعي : أنه يهدي كل المسالك ، بمعنى المناهج والمذاهب ؟

مَن بيده هدايةَ المسالِكِ كلِّها ؟

اللون الذي انقشع عنه اللون الأول .

وهذا هو المتنبي بصياغته العربية (جلا اللونُ) ، اللون الجالي : معروفٌ ، لأنه الجسد الخارجيَّ ، لأنه ظاهر الأمر

(جلا اللونُ عن لونٍ) ، اللون الثاني : هو لونٌ منكرٌ ، لونٌ مطلَقٌ ، لونٌ غير معرَّف ، لأنَّه ليس بوسع أحد أن يمنحه المعرفة ، باعتباره هو الذي يمنح المعرفة لكل أحد ، هو الذي يمنح الهداية لكل مسلَكٍ ، لكلِّ مذهبٍ . فهو : (لون هدى كلَّ مسلك)

إذن ، (جلاّ اللون) : معروفٌ ، معرفة .

جلا اللونُ ، عن لونٍ : هدى كل مسلَكٍ كما انجابَ عن لون النهار ضبابُ

(لون النهارَ) ، هو اللون الثالث ، الذي استخدمه المتنبي مع اللونين السابقين في هذا البيت .

أيقال مع القائلين : إنه التكرار ، ونعيذ بالمعلِّم الأكرم أنفسنا من اتهام المتنبي ، هنا ، بقلة الفهم ، ومن اعتبار ألوانه الثلاثة : عيوبَ تكرار ، كما يكرر كثير من النقاد ، سامح الله النقاد ، ونسأله العفو عنهم والفتح لهم ، ليذوقوا مذاقات الواصلين إلى سعادة الوعي بحياة اللغة .

أقول هذا معتذراً للمتنبي ؛ فقد أوصتني أمي : ألاَّ أذمنَّ أحـداً .. وكانت آخر كلماتهـا وأنـا أهم بمغـادرة البيت لحضور مؤتمركم الكريم . (أرجوك لاتـذمَّ ،اليوم ، أحداً) .

وكأنها تترجم روح الاتفاقية مع سيدنا إقبال ، فقد اتفقنا على عبارته المحـذرة من التــوســط بقلــةِ الفهم ، وهي : إحــذرَنْ .. لا تجرحن قلب فقير .. [أسرار ورموز : ٢٦] .

وأنـا بطبيعتي : أحبُّ أن أداوي ، قــدر الإمكان ، ولكن لا بُـدَّ من الفهم ، وأحياناً لا بد من الإفهام .

(جلا اللون عن لون هدى كلَّ مسلك) :
هذا الشطر : هو (أسرار ورموز) .
والشطر الثـاني من البيت : هو الكون ، بـاعتبـار الحـقِّ يتبين في آيـات الله الآفاقية (كما انجاب عن لون النهار ضباب) . مثلمـا يتبين في آيـات الله النفسيـة لمن يستبينُها فيصيرُ في حالة (جلا اللون عن لون هدى كل مسلك) .

هـذا اللون الأول ، هو : هو لون (خـودي) ، الـذي رفـع .. أو جـلا .. أو صفا .. أو شفَّ .. أو انفتحت كواه على رؤى جـديـدةٍ وراءه ، هي سرُّه المعجز ، أهي إعجاز الأمر النفسي ، ولنقل مع المتنبي ، هي اللون الثاني .

وإقبال نفسه ، يقول : بتربية الذات ، ويشدِّد على مستوياتها الثلاثة ،

الأول : مستوى الطاعة .
والثاني : مستوى ضبط الذات .
والثالث : مستوى العطاء أو الخلافة .

الطاعة ، بـدون اعتراض ، فيهـا جلاء . هنـا يحـدث : جلوُ اللون ، يعني :

الإنسان منا : يتوضأ ، يصلي ، يصوم ، يحج ، يكاشف دنياه : بطاعة تامة ، وراء هذه الطاعة : تحصل مذاقات . بهذه المذاقات : يعرف من هو ، وهو سؤال مطروح : من أنا ؟ من أنت ؟ من نحن ؟ إذن : جلا اللون عن لون هدى كل مسلك .

ونحاول قراءة البيت كما كتبه الشاعر ، مجَدّداً ، لنرى ماذا تجلي لنا الفارسية بعد الجلاء العربيّ ، ثم ماذا تجلي لنا الأردية بعد الجلائين في صوت العربية والفارسية ، فهل نكتشف وحدة المعنى وراء كثرة الألفاظ ؟

إقبال يقول باللغة الفارسية :

بَرْ گرفْتَمْ پردَه أَزْ رازِ خُودِي وَانَمُودَمْ سِرِّ إعجازِ خودي

سر الإعجاز : هذا الذي يمكن أنْ يكونَ (اللون الهادي إلى كل مسلك) عند المتنبي ، وينتهي بيت إقبال بهذه الغاية من شطر المتنبي ؛ بل كل (أسرار ورموز) إقبال : تطوفُ في آفاقه ؛ ساعية يتنعَّم بنعمة اللون المطلق الذي يهدي المسالك كلها .

والشطر الثاني من المتنبي : **يُمثِّلُ منطلقاتِ التفاصيل لآيات الآفاق المنشورة في سائر أعمال فيلسوف الشرق** ، ففي كلها يحاول اكتشاف لون النهار بإجلاء الضباب عنه وعبارة المتنبي صارت ظاهرة ، مع أنها صورة من التشبيه الممثل بالضمني لولا أداته :

«كما انجاب عن لون النهار ضباب »

كذلك :

« جلا اللونُ عن لونٍ هدى كل مسلكٍ »

هنا نتوقَّف مع ملاحظة من مبادئ القراءة المقارنة : **نحن مع لغة القرآن : نفكر تفكيراً عجباً ؛ ونجرؤ على القراءة بلغةٍ كونية واحدة ، ونثق بالمصطلح المشهور : أم اللغات .**

ترى هل تصدِّقون ماتغنِّيه أم كلثوم لمحمد إقبال ، في (حديث الروح) أم تعتبرون المسألة من باب الغناء المسلِّي ؟

شعبياً : معظمنا يعرفُ الأغنية :

حديث الروح للأرواح يسري فتفهمه القلوب بلا عناء

إذا كنا نصدق هذا الكلام : فإن ماسنقوله يُفهم بلا عناء ؛ ولو طفنا بكل لغات العالم ، عَبْرَ الكلمة العربية ، أو عَبْرَ الصوت العربيِّ ، ومن خلال إقبال .

وأفكر أن ذلك من طموحات إقبال ؛ فهو يطلب التجديد الكونيَّ ، تفسيراً وتعبيراً ؛ وهو يعتقد بالسرِّ البيانيِّ في لغة القرآن العربية . وهل يخفى تصريحه على أحد ؟

جدِّدِ الدُّنيا بتفسير جديد عَبِّر الرؤيا بتعبير جديد

[أسرار : ٤٢]

لتُرى أهلاً لإعصار الحياة وتذيب النفس في نار الحياة

ارجَعَتْ ياصاح نحو العَرَبِ .. مَن بفكرٍ صالح في الأدب ..؟

[أسرار : ٣٦ ـ ٣٧]

هذا طموح إقبال ونصيحته **لمن : همُّه الفكر الصالح في الأدب** ، وأهلية الحياة القوية في هذه الدنيا ، والمسألة : داخلية ، وخارجية .

داخلياً ولغوياً : صهره جلال الدين الرومي ؛ فكتب (أسراره

ورمـوزه) بلغـة شيخـه ، وصـار وطن شيخـه ، ولا وطن للعـارف إلاَّ مـا عَرف ، (وطني من يعرف عني) كما في الكتاب (٢٣) من أضواء القرآن ص ٩١٣

خارجياً وبيانيّاً : تجتـذبـه لغـة القرآن ؛ لـذلـك يرى الرجعى (نحو العرب) : لمن بفكر صالح في الأدب ، ويُريد إذابة النفس في نار الحياة المقدسة .

لعلَّه كان يخاطب نفسه من الـداخل ، ويُحرِّضهـا على هـذه الرُّجعي ؛ لأنـه يستشف السرَّ وراء البيـان العربيِّ ، ولئن كتب بلغـة شيخــه الفــارسيــة ، وهـو صاحب اللغة الأردية ، فـإن طموحـه متجـه (نحو العرب) ؛ لأنـه يرى : بفكر صـالـح ... **ولـــه في (حقيقــة الشعر وإصـلاح الآداب الإسـلاميــة) : تفاصيل بيان .** (٣٢ ـ ٣٧)

ونرجـع ، من جهتنـا إلى بيتـه ، ونطبـق عليـــه : مستـويــات الرجاء الإقبالي ، انطلاقاً من واقعه ؛ رأينا البيت باللغة الفارسيـة ، وهـذا مستوى . وبـاللغـة الأرديـة : عـاونني الأخ عنـايـة الله الصـديقي ؛ لأرى وأسمع معادلة بلغة شعبه ، كما سمعته بلغة شيخه الرومي الفارسية .

« أكرمين خودي كي أسرارسي پرده ائهـاتـا معجـزه ظـاهر هـوتـا تـوخـودي لي ... » .

أقف مع كلمة مشتركة ، هي (پرده) ، ومعناها بالعربيـة والفـارسيـة والأردية : الستارة ، الستر . ونعود إلى اختيار المترجم العربيِّ :

فرفعت السترَ عن سرِّ خـــــودي فبـدا الإعجـاز من أمر خـودي ..

إنَّ التأمل بالصوت الذي يُثار من الكلمة (پرده) ، أو معادلهـا (ستـار) : **ينقلنـا إلى لغـاتِ حروفِ جديـدة ، غير حروف العربيـة والأرديـة والفارسية** ، باعتبارها متحدة الحروف **أعني : يصبح الصوت بالإنكليزيـة**

«star» .. وهـذا الصـوت الإنكليزي يعني النجم .. **فكيف تصـحُّ مـلاحظتنـا الأسـاسيـة حـول أمِّ اللغـات . وكيف تكـون النجمـة ستـاراً بمعنى الحجاب ؟**

المبـدأ صحيـح ؛ أعني مبـدا الرجـوع (نحـو العرب) لمن بفكر صـالـح في الأدب ، لأننا هناك نصير في حضن الأم ، أم اللغات ، ولا غرابـة برجعى البنـات إلى أمهن ؟

هذا صحيح ، نظريّـاً ؛ **لكن الممارسـة : تـدعو إلى التمهل .. أيعقل أن يكون النجم ستاراً** ؛ ليظل صوت السين والتاء والراء : واحداً في لغاتٍ تكتب بصور مختلفة ؛ لكنها تتألَّقُ بدلالة المعنى الواحد ؟

تحتاج القضية إلى **قفزة مجازية وتاريخية ، مع سيدنـا إبراهيم عليـه السلام أبي الأنـبياء ..** وصاحب الملة .. ألم تكن النجمة ستاراً حاجباً في رؤيـة إبراهيم المتدرجة ، من النجم ، إلى القمر ، إلى الشمس ، إلى الفطرة ؟

﴿ وَكَـذَلِـكَ نُري إبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكونَ مِنَ الْمُوقِنينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الْلَيْلُ : رَأى كَوْكَباً قَالَ هـذا رَبي فَلَمّـا أَفَلَ قـالَ لاأُحِبُّ الآفِلينَ . فَلَمّا رَأى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبيّ فَلَمّا أَفَلَ قـالَ لَئِنْ لَمْ يَهْـدِني رَبّي لأكونَنَّ مِنَ القَوم الضّالينَ . فَلَمّا رَأى الشَّمْسَ بازغَةً قالَ هَـذا رَبِّي هـذا أَكْبَرُ فَلَمّـا أَفَلَتْ قـالَ ياقَوْم إنِّي بَريءٌ مِمّا تُشْرِكونَ . إنّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّـذي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ حَنيفاً وَماأنا مِنَ الْمُشْرِكينَ ﴾

[الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩]

إن منطلقنـا من كلمـة (ستـار) ، التي تعني النجم ؛ وقـد جـاءت في الآيـة (٧٥) ؛ **والتـأمـل في وضعهـا السيـاقي بـاللغـة الإنكليزيـة مثلاً ، أو الفرنسيـة ، أو سـواهمـا من لغـات الحروف غير العربيـة : يرفـع الستر**

عن سرِّ (خودي) ، **وقد يبدو الإعجاز من أمرها** لمن يريد الله أن يريه من آيات ملكوته ليجعله من الموقنين .

When the night
Covered him over
He saw **a star;**
He said;
«This is my lord,»
But when it set
He said
I love not
Those that set. (76)

إن العجبَ المعجبَ في **هذا الصوت العربي ، الذي يخترق لغاتِ العالم ، محافظاً على دلالته ، بمستوى من مستويات حقيقته أو مجازه** : فالستار في العربية : يكون دالاً على ما يدل عليه صوت (پرده) ، أو حروف المتلبِّس (برداء) . والمتتبع للآثار الصوتية : كمن يتبع مذنَّباً من النجوم ، يأخذه في مساحب أخاذة ؛ **في الفرنسية مثلاً** : يتحوَّل جريان ألمدِّ من وسط الصوت إلى أوله ؛ فيصير معادل (star) الإنكليزية ، هو (astre) الفرنسية ؛ وتأمل في امتداد النجم إلى القمر والشمس والجمال البارع الفطري ، كما في سياق الرؤية الإبراهيمية ، وما أشير إليه : **لا يحتاج اجتهاداً أو تركيباً . بل يتطلب توقفاً مع الكلمة القاموسية** ، في معجم (فرنسي - فرنسي) ؛ أو (فرنسي - عربي) ؛ **ففي المنهل نرى :**

Astre; sm; (astro)

كوكب ؛ نجم ؛ ورجل شهير ..

ثم نرى : الشمس = l'astre du jour

أي نجم النهار ؛ أو الصبح ...

ثم نرى : القمر = l'astre des nuirs

أي نجم الليل ، أو الليالي .

ثم نرى (بارع الجمال) = Beau comme un astre

ونرى الولادة السعيدة من متعلقات هذا الصوت الذي للنجم ، يقولون :
(ولد سعيد الطالع) للتركيب الفرنسي : «Il est mé sous un astre Favorable»

ويلاحظ الصوت في الإنكليزية ، مع مراقبة التغيرات الكتابية ؛
فهو هناك (Aster) ، بمعنى : نجم ، وكوكب ، ولا حق بغيره .

ولكن (star) هي الكلمة الانكليزية التي انطلقنا إليها من : الستر ، أو الستارة ، أو : البرداي ، أو الجلالة ، التي أثارها بيت إقبال ، وجلاها بيت المتنبيّ . فهل جلا لنا اللون من الستارة ، أو الجلالة : كما جلا اللون للمتنبي عن لون يهدي كل مسلك ؟ أو هل ارتفع الستر لنا عن سر إعجاز النفس (خودي) كما ارتفع لإقبال

برگرنتم پرده أزراز خـــودي   واغـــودم سرِّ إعجـــاز خـــودي
اكرمين خودي كي اسرارسي پرده آهاتا   تـو خـودي كي معجـزة ظـاهر هـوتـا
فرفعت **الستر** عن سرخـــودي   فبـــدا الإعجـــاز من **أمر** خـودي

عرفنا كلمة : پرده ـ الستر .. من الشطر الأول ، فانزاح الرداء عن دُرَرِ المعنى .. وارتفع الستر بنا إلى ما وراء النجم الإبراهيمي المثير ...

Twinkle twinkle little star

How I wonder what you are

هكذا كنا نغني في دروسنا الإنكليزية الأولى :

اخفق .. اخفق .. النجم الصغير .

كم أتعجب ، متسائلاً : ماذا تكون ؟

لقد تعجَّبَ منه أبو الأنبياء حتى حسبه لشدَّة تألُّقِه رَبّاً ؛ **لكن انكشاف الستر بغياب الستار : أرى إبراهيم بصفاء الفطرة أنه لا رب سوى الأحد** الذي هو (فاطر السموات والأرض) ، بعبارة « وا نمودم سر إعجاز خودي » أي « فرأيت السر من أمر خودي » .

وهذه الكلمة (الأمر) : كلمة في الشطر الثاني ؛ قد يكون التماسُّ بأنفاسِها ، أيضاً شديد الإثارة ، وعظيم المفاجأة .

تو خدي كي معجزه ظاهر هوتا . هوتا : الفعل المساعد بمعنى كان ؛ أو قد كان ظهر ؛ وهو بالانكليزية (To be) .. وبالفرنسية : (étre) ..

وهنا لمح صوفي في القضية ؛ **لماذا يوجد في جميع لغات العالم : فعل مساعد ..؟!** فرفعت الستر عن سر خودي ، ثمَّ رأساً ، بدا له الإعجاز من أمر خودي . **لماذا استعمل المترجم كلمة (أمر) ؟** .. مع إمكان استخدام غيرها ، **ولماذا استخدمها بدلاً عن (سر) ؟**

ربما لأن هذا الفعل الأول ، الذي يساعد جميع الأفعال .. ولنصغ إلى الآية الياسينية من سورة يس :

﴿ إنَّما **أَمْرُه** إذا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقولَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ ﴾

[يس : ٨٢]

هذا الفعل : يساعد جميع الأفعال ؛ **فكل الأفعال : بنات هذا الفعل وأبناؤه** ؛ وكلها : محتضنة فيه ؛ وهذا في لغات العالم معروف ومشهور .

فهذه الأفعال المساعدة في اللغات : تترك أثراً على كل الأفعال . **وهذا الأثر ، هو بدوره ، من أثر المؤثر الأولي ، الأمر ؛ فعل الفاعل الأول** . وهذا : سر إعجاز خودي ، لذلك ظهر له سر الإعجاز من **أمر** خودي .

شيئاً من الصعوبة .

دخلنا شيئاً من الصعوبة .

بدأنا ندخل بها ، **وإقبال لا يكتم حيرته الإنسانية في سير الزمن ، والأفعال المساعدة والأصلية ، ما هي ؟ أليست تتابعاً زمنياً** ، أو تنسيقاً لتتابع السَّريان **الزمني** ؟ أما قال في أسراره ؟

حيرةُ العبد مسيرُ الزمن — حيرة الأزمان قلب المؤمن
ضاق عن معناي حرف وصدى — عجز الإدراك في هذا المدى
قد غرسنا الدين في أرض القلوب — وجلونا الحق من ستر الغيوب ..

(٦٥ ـ ٦٦)

أما درنا وحرنا مع إقبال لنصل إلى جلو الحق من ستر الغيوب ، على حدِّ تعبيره ؟ أو جلو اللون الهادي من جلاء اللون الساتر ، على حد تعبير المتنبي ؟

وتبقى الأرجوحةُ عالقةً بين الستر والأمر ؛ فالأمر : أمُّ الأفعال المساعدة ؛ **وهو أمورٌ** ، كثيرُ الأمر لها ليكون ما يريده سويّاً به ... وإني ألمح أعجَبَ من العجب وراء هذه الحروف التي أقولها .. والذي يعود إلى الآية الياسينية ويتأمَّل بما يعادل الفعل المساعد في الفرنسية والانكليزية : قد يُفتَحُ له فيرى ما عبَّر عنه المتنبي وإقبال ..

وماقولكم أنني سمعت المتنبي : يتكلم الأردية ، ويتلفظ بحروف الخاء والواو والدال : بطريقته ؟

وللخَـوْدِ مني ســاعــةٌ ، ثم بيننــا فــلاةٌ إلى غير اللقـــاء تجــاب

الخود : مفردة ؛ جمعها : خُود ؛ وتعني المرأة الشابة ، والمتنبي يتحدَّث عنها بعد النفس وحديثه عند النفس مهم ودقيق .

ربَّما يُفْهَمُ إقبالٌ وغيرُه من شعراء العالم ، في هذا السِّياقِ العجيب من المتنبيِّ ؛ لأنَّ المتنبي فتحَ باباً إلى ألوانِ الأنوار في مقامات النفس العارفة ، **بل همس بسرٍّ من أسرار البقاء لمن يُحسن موسيقى الهمس مع حمايته لموضع النفس** ، فقال :

جلا اللونُ عن لونٍ هدى كلَّ مسلكٍ كما انجابَ عن لونِ النهار ضبابُ
وفي الجسم نفسٌ لا تشيب بشيبه ولو أنَّ مافي الوجه منه حِرابُ
يُغَيِّرُ منيِّ الدهرُ ماشاء غيرَها وأبلُغُ أقصى العمر وهي كَعاب
وللسرِّ مني موضعٌ لا ينالُه نديمٌ ولا يُفضي إليه شرابُ
وللخَوْدِ منيِّ ساعةٌ ثمَّ بيننا فلاةٌ إلى غير اللقاءِ تجابُ

إشارات المتنبيِّ في خمسة أبياته : لاتُستوعَبُ ، هنا ، وقد رأينا في بيته الأول محتملاً عميقاً للصَّفاء ، وعندما حصل ذلكَ الصَّفاءُ ، **برز لونٌ مُطلَقٌ مِنَ التلوين** ؛ لكن يهدِي المسالك إلى ألوانِها ، أي يستدرجها في مقامات النفس .

إقبال أحبَّ طريقتين : المولوية ، وهي التي دربته وصنعته عرفانيّاً ، بإرشاد شيخه : جلال الدين ، **والقادرية ، وهي أوضَحُ الطرقِ في تلوين النفس** ؛ فالنفس ، عند أهل الذوق القادري : لها مقامات ؛ ولكل مقام نوره :

فأول مقاماتها : الأمارة ؛ ونوره : أزرق .

وثانيها : اللوامة ؛ ونوره : أصفر .

وثالثها : الملهمة ؛ ونوره : أحمر .

ورابعها : المطمئنة ؛ ونوره : أبيض .

وخامسها : الراضية ؛ ونوره : أخضر .

وسادسها : المرضية ؛ ونوره : أسود .

وسابع المقامات : مقام النفس الكاملة ؛ ونور هذا المقام بلا لون ؛ لأنَّه الصَّفاء . وهذا ماأشار إليه المتنبي ، وقد كشف له بعد جلاء الألوان الأخرى التي تماثل الضبابَ الساتر ، أو الذي يحجب اللون الهادي مادام مُسدَلاً .

إقبال أحبَّ القادريَّة ، وأثنى على صفاء فطرةِ أحد شيوخِها في (أسرار ورموز) [٥٥ ـ ٥٧] .

والمتنبي لمسَ وتر النفسِ الصافية : فبعث الموسيقى التصفويَّة المنبعثة من كشف الستر عن سرِّ خودي ـ وماذا يكون ذلك السرُّ : سوى الإعجاز من أمر خودي ـ وهذا الإعجاز : هو عينُ (لونٍ هدى كلَّ مسلكٍ) ، كما رآه المتنبِّي .

وبقي البيت الأخير من المتنبِّي : يُصوِّتُ بحروفِ إقبالِ الأرديَّة ؛ **فالخود ، في بيت المتنبي** ، قد تعني الفتاة ذات الجسد الخارجيّ ؛ وقد تعني (الخود) : ذاتَ النفس المقيمة بالجسد ، وإقامتها فيه : مؤقتة ؛ فهي ساعة ؛ لأنها لاتَشيب بشيبه ؛ فهي حيوية الدوام وهو يتغيَّر ويَهرَم .

أردت ، هنا ، **الإشارة إلى إمكانيات الصوت العربيّ** في لغة القرآن ؛ **فهو موجودٌ باللغاتِ البناتِ ، على اعتبار اللغة العربية ، هي الأم ،** ولأن المتنبّي لا يُحِبُّ أن يُنال موضعُ السرِّ . نترك القضية عند هذا المستوى من اللمس ؛ ولا أقول المس ، فاللمس : خارجيٌّ ، والمسُّ : من الداخل . **وذلك أمر الطهر البعيد ، وهل يمسه إلاَّ المطهرون ؟**

إقبال ، في أرقى ماقامَ به ، هو ، كما ذكرت : الحديثُ عن المرأة ، ولا أحبُّ : أن أُبدِّدَ ذوقي في مسألةِ فهمه هو ، وأرجو : أن يصدر هذا بكتابٍ تامٍّ بالنسبة لإقبال ؛ أعني **تفاصيل رؤى إقبال للمرأة** ، فالمجال ، هنا ، وفي مؤتمر جماهيريٍّ محدود : لا يَستوعب وقته أكثَرَ من المجمل ؛ والدخول في مثل هذه التفاصيل التي تسرد سرداً : يفقد حال اللقاء **حرارة التركيز ومقتضى الإثارة المنيرة** . لذلك يكون العمد إلى النتائج : هو ما يقتضيه الحال .

في الفصل الأخير ، من (رموز نفي الذات) ، الذي تأتي بعده الخلاصة : شرح لسورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] . ماذا في هذا الفصل الذي يختم (الأسرار والرموز) ، ويتوَّج (بالإخلاص) التوحيدي .. وبث الأوجاد للحضرة الرسولية ؟

قدوة النساء الكاملة وطموح إقبال التربوي

هذا الفصل ، يجعله إقبال :

في بيان أن **بقاء نوع الإنسان بالأمومة ؛** وأنَّ حفظ الأمومة واحترامها : **من أصول الإسلام .**

وأقرأْ بسرعة ، ماترجمه عزام ؛ لنرى معاً ماتبعثه هذه اللمسات من موسيقى المرأة في ذوق إقبالٍ وفنِّه ؛ يقول :

نغَماتُ المرء عـزفُ المرأةِ ... هـو من محنتِهـا في عـزَّةِ
عَشِقَ الحـقَّ ، رَبَاه حجرُهـا ... ذلـك اللحنُ حـواه صـدرُهـا
الـذي قـد بَهَر الكـون سنـاهْ ... قرن الطيبَ إليهـا والصـلاة
جهـلَ القرآنَ جهـلاً مسلِمُ ... قـد رآهـا أمَـةً لاتُعْظَمَ
كُشِفَتْ بـالأمِّ أسرارُ الحيـاة ... بخـلال الأمِّ تسيـار الحيـاة
أيهـا العـاقِلُ مـال الأمَّـةِ ... ليس من عقيـانهـا والفضـةِ
إنَّـه أولادهـا مـلْءُ الأمَـلْ ... في ذكاءٍ ونَشـاطٍ وعمـلْ
تحفَـظُ الأمُّ إخـاءَ الأمَّـةِ ... وقُـوى قرآننـا والْمِلَّـة

ثم يأتي فصل ، (**في بيان أن سيدةَ النساء ، فاطمة الزهراء : أسوة كاملةٌ للنساء المسلمات**) ويكتب في هذا الموضوع ، حوالي عشرين بيتاً ؛ (١٨ بيتاً) ؛ هي قوله ، مبتدئاً بالمقارنة **بين العذراء والزهراء :**

أمُّ عيسى : نسبـةٌ واحـدةٌ

أكلامٌ هذا ؟

مَن أمُّ عيسى ؟

إقبال يعرف جيداً ماذا يقول ، وكيف يثير الانتباه إلى الأمر الأهم والأحبِّ في أهله المتماثلين اتجاهاً وغايةً .

عيسى في القرآن : روح من الله .. وكلمة منه .. ورسول الله .. ومؤيد بالروح القدس .. وذكر (٧٣) مرة في القرآن الكريم .. وله في القرآن (٧) مراتب أو مستويات في السياق .. ولكل مرتبة نورها ، كما يذكر السادة القادريون بشأن أنوار النفس ، في مقاماتها .

وإقبال : يعرفُ جيداً دلائل هذا الكلام ؛ وماذا يعني القول : (أم عيسى) **أنْ تكونَ العذراء ، مريم ، أمَّ عيسى : فهذا شيءٌ عظيم .**

ومع ذلك يقول : « بثلاث تزدهي فاطمة » ، فما هي هذه الثلاثة ؟ النِّسبُ الثلاثة ؟!

١ ـ النسبة الأولى :

قرَّةُ العين لخير الأوَّلين ... خاتَمِ الرُّسْلِ، وخيرِ الآخِرين
نـافخِ الروح بـدنيـا الـوَهَنِ ... خـالقِ العصرِ، جـديـدِ السُّنن

هذان بيتا النسبة الفاطمية الأولى : قرَّة عينِ الأبِ ؛ لكن بسط ما طواه الشاعر فيها : عالم نقدٍ وفهمٍ ؛ أشعر أن له بداية ، وأن غايته في مطلَق من المحاسن لا نهاية له .

ومع ذلك : نقترب اجتماعيّاً من المعنى .. فماذا نجد ؟

نحن نعرف : أن السيدة آمنة ، أمَّ محمد ، توفيت مبكراً ، وبالتالي : لم يعرف

العيش بحضن الأم ، وكان ، وقد صار أباً ، يقول لفاطمة : يا أمَّ أبيها ، يعني : يا أم محمد .

فإذن ؛ كانت تعوِّض له جذوريّاً ، أو أصوليّاً : أصلاً لم يعِشْه عيشاً نفسيّاً تامّاً .

وعفو رسول الله ﷺ ، فأنا أتكلَّمُ كلاماً قريباً ، عن رسول اللهِ ، الإنسان ، ابنِ المرأة ؛ فهذا كان يحتاج أمّاً ؛ لكنها غابت ، وهو في طفولة البُنوَّة ؛ فجاءت أمُّ أبيها ، ابنته ، تعوضُ عليه هذا الأمرَ .

هذا غمرٌ من جهةِ الأصل .

وأمّا الغَمْرُ من جهة الفرع : أما كانوا يُعيِّرون رسول الله ﷺ ، بأنه أبتر ؛ ليس له أبناء وأولاد ؟

لكن (**الورافية**) .. يعني الشجرة الوارفة .. الشجرة الزهراء الوارفة بكل شيء .. جاءت أزهرت وأثمرت .. وكانت ذرية محمد منها .

وبالتالي فقد عوضت عليه فقدان الفروع .

كذلك أعتذر لسيدي رسول الله ﷺ فأنا أتحدث من قريب . وبهذا المستوى مستوى الأم ، مستوى المرأة .

إذن ، فاطمة : كانت أمَّ أبيها ؛ تغمره بالحنان فتعوض عليه مسألة غيابِ الأمّ . وكانت بنتَ أبيها ﷺ ؛ وبالتالي : كانت أمَّ ذريته التي جاءت فيا بعد . وصار رسول الله الأب ؛ فالمسلمون والناس ، يقولون : سبط رسول الله . حتى الأئمة الاثني عشر : كانوا يخاطبون بالبنوة لرسول الله ؛ فيقال ، لأحدهم في أيامه : يا بن رسول الله .. والحسن والحسين : كانا يقولان لمحمد يا أبا . .

هذا أمرٌ مهمٌّ : **من الوجهة النفسية ، الوجودية ، الاجتماعية .**

وبهذه الوجهة : يفهم قول إقبال لفاطمة : « قرة العين لخير الأولين » ، مع أنه ذكر أن الصلاة هي التي وصفت (بقرة عين النبيِّ) ؛ في حديثه الشريف ؛ وعبارة إقبال في اقتباسِ الحديث ، تقول عن النبي :

الـذي قـد بهر الكـون سنـاه   قرن الطيبَ إليهـا والصـلاة

فالبيت مقتبس من شريف الحديث القائل : « حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة » [أسرار ورموز : ١٣٥] .

فكيف نستحضر بالعبارة مافي قلب إقبال ، وهو يقول ما يقوله من نسبة فاطمة إلى محمد ، بصفةِ (قرّة العين) ؛ لكنها قرة عين ممتـدَّة في سرائر (خير الأولين والآخرين) ، و (خاتم المرسلين والنبيين) ، ونـافخ الروح القويّ بـدنيـا الضعف ، ومجدد العصر بسنن الخلق البديع . فَمن يمنح كلَّ هـذه المنح ، ولـه هـذه المزايا ، كيف تكون من تمنحه (قرة العين) ؟

ولنتأمَّل عبارة الشاعر مجدَّداً ، فماذا يجد النقد فيها ؟

أمُّ عيسى نسبـةٌ واحــدة ؛   بثـلاث تـزدهي فـاطمــة
قرَّة العينِ لخيرِ الأولين   خاتمِ الرسل ، وخير الآخرين
نـافخِ الروحِ بـدنيـا الـوهَن   خـالـقِ العصرِ جـديـدِ السنن

محمد : خاتم الرسل والأنبياء ؛ وقد حملَهم معه ، ولئن كانت فاطمة أمَّ أبيهـا : رعايةَ وفاءٍ وبقاء ، **لئن احتضنت أباها بالحنان : أمّاً وبنتاً ؛ فإن ماحمله من آيـاتِ الله : يحتضن ، بـأحسن القصص ، أربعـة وعشرين نبيّـاً ؛** فبلاغة الأنبياء ؛ وشخصياتهم ؛ وقصصُهم ؛ وأنوار سِيَرِهم : حُملت برسالـة محمد ، حملَ اعتناء ورعايةٍ ، حمل تبَنٍّ وعناية ؛ **فمثلاً :**

﴿ وإنَّ إلْيـاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إذْ قـالَ لِقَوْمِـهِ : ألاَ تَتَّقونَ . أتَـدْعونَ بَعْـلاً

وَتَـذَرونَ أَحْسَنَ الْخـالِقينَ . اَللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبـائِكُمْ الأَوَّلينَ . فَكَـذَّبـوهُ فَـإِنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ . إلاَّ عِبـادَ اللهِ الْمُخْلَصينَ . وَتَرَكْنـا عَلَيْـهِ في الآخِرينَ . سَلامٌ عَلى إِلْيَـاسينَ . إنـا كَـذَلِـكَ نَجْـزي الْمُحْسِنينَ . إِنَّـهُ مِنْ عِبـادِنـا الْمُـؤْمِنينَ ﴾ [الصافات : ١٢٣ ـ ١٣٢] .

هكذا قُدِّم إلياس مع رسول الله : تقديم عنايـةٍ بـالموقفِ الأحسن من جنـديٍّ اللهِ المحسن التبليغ .

وكذا قُدِّم الأنبيـاءُ الآخرون بإحسـانهم وأحسنِ مواقفهم . **ألسنـا نجـد سير الأنبيـاء في القرآن الـذي حملـه خـاتمُهم ومحتضن سِيَرِهم : ليظلـوا في أنباء الناس ذكراً حميداً ومُرشِداً ؟**

أعني أنَّ محمَّداً : حمل الأنبياء إلى الأمَمِ بما حمله من كتابٍ ورحمانية .

وعفو سيدي رسول الله ﷺ ؛ فهو (خاتم الرسل وخير الأولين) .

وكذلك أعتذر للأخ إقبال ؛ فما أودعه في هذين البيتين : يحتاجُ مدىً زمنيـاً آخر ؛ **وحتى حصـة عليٍّ وبنيـه من الشرح : أهبهـا لمن يتحـدثـون بعدي ، مكتفياً بقراءة الأبيات قراءةً .**

فماذا يقول إقبال بالنسبتين : الثانية والثالثة ؟!

٢ ـ النسبة الثانية

وَهْيَ زوجُ المرتضى ، ذا البطـــلِ ... أسَـــدِ اللهِ ، الحكيم ، الفيصـــلِ
مَلِـكٌ في الكوخ ، زهـداً قـد أقـامْ ... كلُّ مـــا يملـــكُ درعٌ وحُســام ..

٣ ـ النسبة الثالثة

وَهْيَ أمُّ السيــــــدين الأكرمينْ ... حَسَنٍ ، خيرِ حليمٍ .. وحُسَيْن

ذا سِراجٌ في ظـــــــــلامِ الحَرم حــــافِـــظٌ وحــــدةَ خَيرِ الأُمَمِ
ازدرى المُلــك ابتغـــاءَ الألفـــةِ أطفـــــأ النيرانَ بين الأخــــوةِ
ذاك في الأبرار : رب العلمِ أســــوة الأحرار في الخطب العمي

٤ ـ وازدهاءُ المنتسبين

إقبال : لا ينسى **الإحكامَ الغنيَّ في عرض ما يتمثله** ؛ فقد عدَّد النِّسَبَ واعتدَّ بها للزهراء ، أوّلاً .. ثمَّ عاد من حيث انتهى به العد ؛ ليتأمَّلَ في الصلاتِ الورافية بين : فاطمة الأمّ وبين البنين ؛ وبينها وبين الزوج ؛ ثمَّ بينها وبين الأب ؛ ثمَّ يأخذه التأثر : فيظهر موقفه من اتحاد هذه الخصائص مرّةً واحدة ؛ فيقول ، وكأنه يعود في مراحل الطريق التي سلكها :

أ ـ الأمهات والأولاد

سيرةُ الأولاد صنعُ الأمهـــات وخــلالُ الخير طبعُ الأمهـــات
زهرةٌ في روضةِ الصدق البتول أسوةُ النسوة في الحقِّ البتــول

ب ـ المُطاعة المرضية

فــاقــةُ السائــل أذرت دمعها ليهوديٍّ أبـــاعت درعَهـــا
كلُّ مَن في الأرض قد طاع لها ورضـــاهـــا حين تُرضي بعلَهـــا

جـ ـ التنشئةُ والاستعداد

نُشِّئَتْ مـــــا بين صبرٍ ورضَى في الفَمِ القرآنُ ، والكفِّ الرحَى
دمعُهـــا من خشيــةِ الله جرى في مُصَلاَّهـــا يفـوق الجـوهرا
لقَــطَ الرُّوحُ الأمينُ الـــدُّرَرا وعلى العرشِ المعلَّى نثرا

د ـ لولا شرعُ الرسول

أنــا لــولا الشرعُ عن هـــذا نهى وإلى شرع الرســــــول المنتهى

طفتُ حـول القبر إجـلالاً لهـا   نـاشِرا من سجَـداتي حـولهـا

إنَّ التأمُّلَ في الأبيات الثانية : قد **يجذب عيون الذوق إلى حيث وقعت عيون إقبال الذوقيّة** .. فتكون المشاهدات المشتركة ؛ ويكون **لقاء الشاعر والناقد في الرؤية . ولكن هل يجرؤ النقد على الادعاء ؟**

ألا يُدهش من الشاعر هذا الجمعُ بين مفارقاتِ متباعدة ، كالتي جمعت بين التلبيات على اختلافِ المستويات ؟

ما هذه الأمومة الإنسانية الغامرة : تغمر بالدمع حاجةَ شحاذٍ يهوديٍّ ؛ ثم تعرضُ درعها للبيع ، لتتصدقَ عليه بالثمن ؟

ما هذه الطاعة المندفعة : لا ترى الرضا بغير رضا الزوج ؛ لأنه الواجبُ المقدَّسُ .

وماذا عن كونية الطاعة ، بقوله : « كل من في الأرض قد طاع لها » ، ومع ذلك فهي مندفعة لإرضاء الواجب الأسريّ ، وتلبية الحق الاجتماعيّ الإنسانيّ .

قلت : إني أهبُ شرح ما أراده إقبالٌ ، لعليٍّ وابنيه ، لَمن يتحدَّثون بعدي .. ودائماً تعوَّدنا على شجاعة الأخذ من الكرماء الأسخياء ... الذين يهبون هباتهم ومواهبهم بطلب أو بلا طلبٍ .

لكن ما يراه إقبالٍ ، وقد رفعت لي الستارة عما يراه ؛ أمرٌ **يثير أوصافاً ربيعية لذوق الشعر والنقد والحقّ** .

ثمَّ يختم الحديث مع المرأةِ المسلمةِ ؛ فيخاطِبُها منبّهاً ومقدّراً ومرشداً ؛

فيكِ تسمو للمعالي فطرةُ

الفطرة التي هي أسرار خـودي ، التي هى سرُّ الإعجـاز في خـودي ، إذا

صفت ، إذا جلا اللون : يكشف في المرأة ، أيضاً ، ذلك اللون الذي قال عنه المتنبي « يهدي كلَّ مسلك » ، فلتتنبَّهْ المرأةُ ؛ يقول إقبال : « فيكِ تسمو للمعالي فطرةُ » .

لكن كيف تسمو الفطرة في المرأة ، تقول النساء ؟ نتمنَّى السموَّ ونرجوه ... ولكن كيف نحققه ؟

ويقول إقبال :

فاتبعي الزهراء نعمَ الأسوةُ

هذه شيختكن .. هذه شيختكم .. فاتبعْنها ، و (سيرة الأولاد : صنع الأمهات) .. **فلتكن الأنشودة التربوية والنشدان الاجتماعيُّ : في تكرار هذا القول** وتكرير الأخلاق حتى تصفو وفق خصاله ومذاقاته ، يقول :

فيك تسمو للمعالي فطرة	فاتبعي الزهراء نعم الأسوة
علَّ غُصناً منك يأتي بحسينْ	فترى النضرةَ روضاتٌ ذَوينْ

لا أستطيع إلاّ أن **أبوحَ لكم بكلمةٍ ممَّا يكشفه لي ذوقَ إقبال في استخدام الكلمات بصورة علائق** تضيء مصابيحَ لا تُحصى .

أقول : إن العلائق بين (روضات ، والنضرة) . وبين (الزهراء) .. **تمكِّن من كتابة رسالة مطوَّلة ؛ لماجستر ؛ أو لدكتوراه ؛**

ما ذوق إقبال الفني : كيف تكتنه مبادئه العميقة الراسخة ، وهو يرى البعثَ المجدَّد في ذاويات الأشجار ، اللواتي هي النساء ، في هذا السياق ، وهذه الذاويات من الكائنات : هن روضاتٌ في الأصل ، والروضات أجمل وأخصب بقاع الجنة ، النضرة : وصفُ الوجوه الناعمة الناضرة المرضية الراضية ، لكن ذلك جميعاً : لا يكون إلاَّ بمقوماته ، وروح تلك المقومات : اتباع الزهراء .. **وماذا**

تحمل كلمة الزهراء ؟!

الـزهراء : تحمِـلُ من المعـاني ربيـع الشمس في الشجر ، وفصـول الشجر في أحضان الشمس ، وفي القاموس أمواج معانٍ للكلمة .

وأقرب من ذلك ، وأعذب : ماقدَّمه تاريخ الرحمن للإنسـان ؛ فجعل رحمـة للنـاسِ كافـة ، وجعـل لهـذه الرحمـة أمَّاً ، وقرةَ عين . من فـاطمـة بنت محمـد ، والزهراء : أم أبيها .

أليست هذا من **معاني الازدهاء التي رصدها فيلسوف الشرق ، بذوق الفقير** ، عندما قال :

بثلاثِ تزدهي فاطمةُ :
قرَّةُ العين لخير الأولين
خاتم الرسل ، وخير الآخرين
فاتبعي الزهراء نعم الأسوة
فيك تسمو للمعالي فطرة
أمٌّ عيسى نسبة واحدة
علَّ غُصنا منك يأتي بحسين
فترى النضرة روضات ذوين ..

هذه سبيل الازدهاء ، وعلى النساء أن يعرفن شيختهن ؛ وأن يتبعنها ، **لأن روضـات الجنـات تتفتح فيهن ، إذا فعلنْ .. يقـول إقبـال .. وأرجـو القبول ..**

لاموتَ في الحجاز

بيتٌ أخيرٌ ، في ديوانِ (**إقبالٍ**) ، يُعبِّر عن مشكلةٍ لديه ؛ أختم به كلامي .

إقبالٌ : كان فيه لهفةٌ لشيء ، قضى كل حياته يتلهف ، وهو يعترف في « **شكواه إلى من أُرسل رحمةً للعالمين** » ، يبوح بأسرارٍ من مراحِل حياته ، ثمَّ يبوح بتلك اللهفة المضمرة في فؤاده ؛ فيقول لرسول الله ﷺ في آخر ما دُعي (شكوى المصنِّف) :

يــا رحيماً بــكَ للنــاسِ مَفَــازْ كلُّ مـا أبغيـه مـوتي في الحجـاز ..

[أسرار ورموز : ١٥٣]

عارفو إقبال ، وشارحو شعره : ينقلون أخبارَ هذه اللهفةِ المبتغَاةِ ؛ فيقول قائلُهم :

« كرر إقبالٌ هذا الرجاءَ في شعره، قبل وفاته بثلاثين عاماً إلى أن توفي ؛ وروى الأستاذ يوسف جشِّي ، شارح دواوينه : أن أحدَ أصحاب إقبال ، دخل عليه في يناير ١٩٣٨ م ، أي قبل وفاته بثلاثة أشهر، وأخبره أنه عزم على الحج ، وسأله أن يدعوَ الله ؛ ليقبلَ حجته ؛ فبكى إقبالٌ بكاءً شديداً ؛ وقال : بلِ اسألِ الله أن يُيَسِّرَ لي زيارةَ روضةِ الحبيبِ ﷺ .

[أسرار ورموز : ١٥٣]

إقبـال في نشيـدهِ الاعترافيِّ .. وشـارحـوه : يُصـوِّرون هـذه الأمنيــةَ « درةَ الرجاء » الإقباليِّ ..

لكنني علَّقتُ على هذا البيت : **تعليقاً خـاصـاً بـإقبـال** .. والواقع : أنني أُهنِّئُ إقبالاً ؛ هكذا قلتُ ، عندمـا قرأت البيتَ مجـدَّداً ؛ لأنَّ : **الحجـاز : ليس بها موت ..**

الحجاز : أن تحجز ماسوى (خدا) عن (خودي) .

الحجاز : أن تجعل (خودي) حَرَماً مُحرّماً على غير (خدا) ..

ولـذلـك : فقـد مـات إقبـال في الحجـاز ، يوم أحرقتْ ثقـافـاتِـه نـارُ جلال الدين ... فمبروكٌ هذا الموت : لقد تحققت أمنيتُـه ومـات في الحجـاز ؛ مـذ صـار قلبُ الفقير فيه .

الحجاز ، إذا انتبهتم ؛
الحجُّ : أول الكلمة .
والحِجا : خُطوةٌ إلى الأمام ، وهو العقل .

والـزاي (: جى) هـذه خـاتمـةُ لغـات العـالم ، وهي الرتبـة السَّـابعــة ، في الأبجدية : (أبجد هوز) ...

فإذن :

يــــارحياً بـــك للنـــاس مفـــاز   كل مــاأبغيــه مــوتي في الحجــاز ...

الموت في الحجـاز : أن يُحجَزَ مـاسـوى (خـدا) عن (خـودي) .. فتكـون خودي : خالصة لخودا ، فهي : حرمه ، وهو : يحميها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الترابط بين العرفان والفلسفة عند إقبال

الشيخ سلطان علي الأفطاري

الشيخ سلطان علي الأفكاري

إنّ العلامة الشيخ سلطان علي المعروف بالأفكاري وُلد في مدينة كويتة الباكستانية سنة ١٩٤٦ م ثم سافر إلى العراق وكان عمره لا يتجاوز ١٦ سنة من أجل تحصيل العلوم الدينية وأقام هناك . وفي سنة ١٩٦٨ م دخل في جامعة النجف الدينية وتخرّج منها وحالياً أستاذ في الحوزة العلمية الزينبية في دمشق .

الترابط بين العرفان والفلسفة عند إقبال

(١) تبجيل العظماء وتخليد ذكرياتهم في أية أمة يتناسب طردياً مع عظم الإنجاز الذي قدّموه إمّا لأمتهم ، أو للبشرية ، أو للفكر الإنساني .

قد يكون الإنجاز فردياً ، وقد يكون اجتماعياً . قد يكون آنياً يخدم قضية موقتة ، وقد تستمر فاعليته ، ويتجدد رونقه عصراً بعد عصر .

وحيث يكون عام المنفعة ، مستمر الفاعلية ، متجدّد الرونق ، نافذاً إلى الصميم يحمل مؤشرات الخلود لصاحبه أكثر .

(٢) والرؤية الفلسفية لإقبال لا تزال مصدر عطاء كبير في مجال المعرفة ، تمدّنا بالجدّة والحيوية في كل لحظة . كما أن الروح التي بعثها في الطبقة المثقفة في شبه القارة الهندية كانت ركيزة من ركائز الاستقلال ، ومشعلاً من مشاعل الحرية .

(٣) والذكرى الثامنة بعد المئة لميلاد شاعر المشرق والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، التي تقيمها وزارة الثقافة والإرشاد في الجمهورية السورية ، بالتعاون مع السفارة الباكستانية في دمشق ، تتيح لنا المجال للتحدث عن عظمة هذا المفكر العملاق ، وعمق رؤيته ، وشدّة وعيه .

لنأخذ جانباً واحداً من جوانب هذه الشخصية الفذّة وهو الترابط بين العرفان والفلسفة عند هذا المفكر القدير .

(٤) وقبل أن نخوض في صميم البحث ، نسأل : ماهو مجال عمل الفلسفة ، وما مجال العرفان ؟

الفلسفة : رؤية للحقائق التي حولك .
والعرفان : معرفة الحق تعالى بعد معرفة نفسك .

وبعبارة أدق : الفلسفة رؤية إلى الخارج ، والعرفان تأمل في الداخل .

وقد يترجم العرفان إلى سلوك عملي فيكون تصوفاً .

(٥) إنّ الدارس لفكر إقبال يجد الترابط عنده وثيقاً بين العرفان والفلسفة ، حتى لكأنك ترى مرآة تعكس ما في داخلها في نفس اللحظة التي تعكس النور المتساقط عليها .

وهل شيء أروع من مرآة تعكس داخلها ؟

(٦) لنبدأ بفكرته عن الجمال . ليس للجمال عند (إقبال) علاقة بمظاهر الحياة ، بقدر ماله من علاقة بالمشاعر الباطنة ، وهو عنده متغير كالذات التي تغير صورها بين الحين والآخر .

في جملته الأولى ، نراه يطبق نفس المقياس الذي قرّره الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول : « زينة البواطن أجمل من زينة الظواهر » .

فمظاهر الحياة التي أشار إليها إقبال ، هي من مقولة الظواهر عند الإمام علي ، والمشاعر الباطنة من مقولة البواطن .

أما فلاسفة الغرب فهم أبعد ما يكونون عن هذه الرؤية . خذ مثلاً على ذلك (كانت) الذي يرجع الخبرة الجمالية إلى تفاعل غير محدّد بين ملكات الإدراك الحسّي والخيالي من ناحية ، وبين العقل الفاهم من ناحية أخرى ، وأن الخبرة الجمالية تدعونا إلى أن يقوم العقل الفاهم ، بتطبيق المدركات العقلية عليها .

وعلى هذا فـالشيء الجميل يرتبـط ارتبـاطـاً ضروريـاً بـالشعور البـاعث على اللّذة .

في قبـال ذلـك نجـد (إقبـال) يقـول : ليس من المستطـاع تعريف الجمـال وتحديده ، إذ هو مليءٌ بالأسرار التي تفوق حدود التعبير ورسوم التعريف .

هناك كثيرون تتيح لهم تجـاربهم الفرديـة أن يشعر بمعنى الجمـال على أنـك لو طلبت عليهم الإبانة عن مكنون شعورهم لتاهوا في المسالك . فهذا الجمال الذي أثار عواطفهم ، وألهب مشـاعرهم ، وأثر في نفوسهم ، لا يجـدون في أنفسهم المقـدرة التي يستطيعون معها ، الإفصاح عن آثاره .

وهكذا يخلص إقبال إلى أن الجمال على حقيقته كامن في عين من يحسّ به ، لا في المناظر المشهورة ، والصور المحبوبة .

ولا علاقة للجمال والعشق بمظاهر الحياة بقدر مالها من علاقة ثابتة بـالمشـاعر الباطنة .

هذا هو الجانب العرفاني للجمال عند إقبال ، أما الجـانب الفلسفي فهو أن من أكبر خصائص الجمال ، عند إقبال التغيّر والزوال ، أي أن إقبـال ينظر إلى الجمـال نظرة الماهية التي تحمل الإمكان الاستعدادي في ذاتها ، ولهذا صلة بموضوع الحركـة التي هي عند المحققين من فلاسفة الإسلام : خروج تـدريجي من القوة إلى الفعل . أي إن وجوداً بالفعل يلازمه وجودٌ بالقوة لحالة أخرى ، وهكـذا يصبح مـا بـالقوة بالفعل ، مستمراً في التطور والتجديد .

هكذا نفهم الصلة والترابـط الوثيق بين التـذوق العرفـاني والرؤيـة الفلسفيـة عند (إقبال) .

(٧) لونٌ آخر من التفاعل بين الفلسفة والعرفان نشـاهـده في تبرير ترجيحـه العشق على العقل يصوغ ذلك بصورة محاورة بين مريد هندي ومرشد رومي .

فيجيبه المرشد الرومي : عليك أن تبيع العقل وتشتري حيرة العشق . فإن العقل ظنون ، والحيرة نظر وشهود .

إنّ العقل يصل بالقوافل الذاتية في سيرها إلى المنازل المنشودة ، تماماً كما يفعل العشق ، ولكن شتان ما بين هذا وذاك .

العقل يوصلك إلى الهدف بالتمويه والحيلة والمكر ، في حين يُزوّد العشق هذا المركب بالطاقة الحركية الدائبة التي لاتفتر .

اسمعه يقول :

كلاهما يسرع نحو المنزل وكلاهما أمير القافلة
العقل يقود بالحيلة والعشق يدفع القوة

وعندما يعلّم العشقُ العبدَ آداب معرفة النفس ، تنكشف له الأسرار ، فليكن المرء في زيّ فريد الدين العطار ، أو جلال الدين الرومي ، أو فخر الدين الرازي أو الغزالي ، فإنه لن يفوز بغير آهات السحر وسلوك العاشقين .

حتى النماذج التي يقدمها ، يذكر فيها اثنين من العرفاء ، واثنين من الفلاسفة .

وفي هذه الرؤية العرفانية الجميلة نراه يفضّل الواله* العاشق على الملوك والسلاطين قائلاً « إنّ ذلك الفقير الذي تشتم منه رائحة أسد الله الغالب ـ يعني به الإمام علي بن أبي طالب ـ عليه السلام أجلّ قدراً من دارا والاسكندري .

والآن لنر نظرية إقبال في الزمان .

(٨) هل الزمان أمر اعتباري منتزع أو أمر حقيقي واقعي ؟ يقول إقبال : الزمان الحقيقي هو الديمومة المحضة ، أي التطور من غير تعاقب ، لكن الذهن البشري يقطّع ويجزّئ .

إن الزمـان عنصر ضروري من عنـاصر الحقيقـة القصوى ، وهو خـط لا يزال يرسم كما يبين القرآن الكريم . في المنطق القرآني يبدو العالم قابلاً للازدياد المستمر ، وليس صنعاً مكتملاً تخلت عنه يد الصانع منذ أحقـاب بعيـدة ، وهو الآن يمتـدّ في الفضاء ، أشبه بكتلة ميتة من المادة ، لا يفعل فيها الزمان شيئـاً . فـالله عزّ وجل يقول في كتابه المحكم ﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَ اللَّيْلَ والنّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أرَادَ أَنْ يَـذَّكَرَ أَوْ أَرادَ شُكوراً ﴾ .

أما الوجود في الزّمان الحقيقي ، فهو ليس التقيّد بـانحلال الزمـان المتجـدّد ، وإنّما هو خلق هذا الزمان المتجدّد لحظة لحظة .

وعندما تناقش نظرية الفيلسوف (هنري برغسون) حول الزمان يقول :

ليس صحيحاً ما يقولـه برغسون من أنّ الزّمـان خـطٌّ قـد رسم بـالفعل ، بل الصحيح أنّه خطّ لا يزال يُرسم . كما خطّأ برغسون في عدّه الزمـان البحث سـابقـاً على النفس الإنسانية ، فقال : إن الديمومة البحتة إنّما هي للنفس .

لقد كتب إلي (نيكلسون) يقول : « إن الإنسان توهم الوقت خطاً ممدوداً ، وقاسه بالليل والنهار ، فوقع في شبـاك الوقت ، والحق أن الوقت هو الحيـاة ، هو الأمل والعمل والسير الدائم » .

ونلمس الترابـط الوثيق بين الفلسفـة والعرفـان عنـد إقبـال ، حينمـا يتعرض للوقت في قصيدته : (أسرار خودي) فيقول : إن الوقت هو الحالة النفسية لـك ، وليس خطاً ، أو توالي الليل والنهار ، إنه لا يوجد من حركـة الشمس لأن الشمس فانية ، في حين أن الزمن خالـد . لأن الحيـاة هي الـدهر . وإذا ضممنـا إلى هـذه الجملة قولة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تسبّوا الدهر فـإن الـدهر هو الله » . فهمنا ما يقصد إقبال من الأبيات التالية :

كم ترى في آسر صبـح ومسـاء   لي مـع الله بهـا الـوقت أضـاء

وقتنـــا من قلبنـــا يـــزدهر ليس فيـــــــه أول أو آخر
الحيـاة الـدهر يـــامن عَرَفـــا لاتسبّوا الدهر قول المصطفى

بعد هذه الجولة القصيرة التي تعرفنا فيها على نماذج من فكر إقبال .

ورؤيته الفذّة الّتي لاتزال طريّة في أعماقنا ، باعثة على النشـاط والحيويـة ، نودّ أن نشير أنّ مصدره قرآني بحت .

وأنه مقتبس من النصوص الشرعية ما يساعده على هـذه الرؤيـة الفلسفيـة ، فتأكيـده على معرفـة النفس واهتمامـه البـالغ بـالجـانب العرفـاني ، نـاشئ من قول الرسول ﷺ : « من عرف نفسه فقد عرف ربّه » .

وفي هـذا كلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طـالب عليـه السلام حيث يقول : « معرفـة النفس أنفـع المعـارف » ، ويقـول أيضـاً : « نـال الفـوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس » .

وهكـذا أيهـا السيـدات والسـادة نصل إلى نهـايـة جولتنـا المتعـة مـع إقبـال وعرفانه الممتزج بالفلسفة .

والسلام عليكم

صلاة إلى منبع الحب

بارئي

نذير الحسامي

نذير الحسامي

- ولد الشاعر في مدينة حمص عام ١٩١٩ .
- حصل على إجازته الجامعية من كلية الحقوق في جامعة دمشق عام ١٩٤٧ .
- مارس هواية الكتابة الأدبية نثراً وشعراً منذ مطلع عام ١٩٣٦ .

دواوينه الشعرية المطبوعة هي :

١ - (لَهَب) طبع في دمشق آخر عام ١٩٤٤ .

٢ - (في سعير المعركة) طبع في حمص عام ١٩٥٧ .

٣ - (أغانٍ لفلسطين) طبعته وزارة الثقافة والإعلام في بغداد عام ١٩٧٩ .

٤ - (ألا تزورنا أيها الغضب) طبعته وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق عام ١٩٨٣ .

٥ - (الوردة تَعشق برعماً) من مطبوعات دار طلاس بدمشق عام ١٩٨٤ .

٦ - (سيوف عربية) من مطبوعات دار طلاس بدمشق عام ١٩٨٤ .

وللشاعر عدد من المخطوطات الشعرية المهيأة للطبع . منها قيد الطبع :

(في نارنا يبرعم الزيتون) و (أغاريد في قفص) و (قلبي والليل) وغيرها .

صلاة إلى منبع الحب

ألقيت في الاحتفال الكبير الذي أقامته السفارة الباكستانية بدمشق تحت رعاية وزارة الثقافة والإرشاد القومي في ٩ و ١٠ و ١٩٨٥/١١/١١ م في قاعة مكتبة الأسد في ذكرى مرور ١٠٨ سنوات على ولادة المفكر المناضل شاعر الباكستان الكبير وفيلسوفها الإسلامي الدكتور محمد إقبال .

أيبلّ رملُ فلاك غُلّ الصادي ؟ شرب الصدى ليلي وليل الحادي
وسألت في مسراي : تدنيني الرؤى لأكون قبل الصبح أول غادي ؟
يا رب لم أملأ بغيرك في الهوى كأسي ولم يسأل سواك فؤادي
ويداي لم أبسط لغيرك منهما كفاً ولم أعط السُقاة قيادي
دربي إليك عرفته صعب الخطا وعرفتَني فيه أقلّ زادي
ضاع السُرى يا رب إن كان السرى يوماً بعيداً عْن مداك الهادي
أطوي خفيف الزاد وعر المرتقى وأرى نجادي سهلةً بوهادي !
قلبي على شفتي وبين جوانحي ووراء باصرتيَّ طيف منادي
ناداك : يا رب استجار بك الهوى فامسح رقادي بالهوى وسهادي
مُحيت أساطيري وبان ضلالها إن لم يصبها منك رشّ مداد
سبَّحتُ باسم علاك وحدك في الهوى وفضحت ذلي واتّهمت عنادي
الليل غرّبني بوادٍ والضحى يا رب شرّق بي الغداة بوادي

ظُلَم وأنـوار قطعت غمـــارهــــا أنكرت فيهـــا ضلّتي ورشـــادي !
حتى لقيتــــك في ضميري جــــذوة وهَّـــاجـــة الأصـــداء والإنشـــاد
قـــدسيّــــة الإيحـــاء لَمَّت غربتي فرجعت من مـــوتي إلى ميـــلادي
هـــدأت بهـــا روحي وقرّ غليلهـــا وزكا بهـــا عقلي وضـــاء مرادي
ورأيتَني حيـــاً ونبضــك في دمي ووجـــدتني حراً وفيــك معـــادي
وغـــدوت أرقص والسعير معـــانقي وسهرت أشـــدو واللظى بســوادي
ديني جنـــون العــــاشقين وإنني حطّمت في صبـــواتهم أصفـــادي
ومن الجنــــون غرفت حتى لم أدع للعقـــل غير ســـلافـــةٍ من زاد
نسبي إلى الإنســــان فخر أرومتي فـاسلـخ بيـاضي في الـورى وسوادي
نـــادمت إنســـانيتي فسقيتهـــا كأس المحبــة مـلء ليـلٍ صــادي !

☆ ☆ ☆

يـــا نـــائي الأبعـــاد آنس وحشتي يـــا من تَرفّــق وصلـــه ببعـــادي
سلســل تبـاريحي وهــدهــد عبرتي شغفـــاً وأطلــق في الرؤى آمـــادي
مـــا كان أو مـــالم يكن يـــا رب في سيمائـــه أبـــداً صنيعـــك بـــادي
لــو شئت نضَّرت الرمـــال حـدائقـاً يــــا من يبرعم خلف كل جمـــاد
الشـوك خلقــك يجتــديــك كـورده فنــــداك لــــلأشـــواك والأوراد
أكرمت تقـوى النـــاس لم تعـدل بهـا نسبـــاً يعـز لحـــاضر أو بـــادي
جـــدواك مـــزبـــدة فهبني قطرة أغرق بهـــا شـــوقي إلى الإزبـــاد
كأسي بليلـك من يـديـك شربتهـا وجـــداً عرفت بـــه ظما الـــوُرّاد
هبني غـوى أهــل الهـوى في عـــالمٍ قتَّـــالِ كل هـــوىً وكل وداد
غفرانــك اللّهمّ غُمّ بنـــا الـــدجى يـــا من دجـــاك عـــوارف وأيـــادي
النـــاس يـــا رب العـوالم بعضهم حرب لبعض والنفـــوس عـــوادي
متكالبــــون على فرائس بطشهم نهْشـــاً بـــأظفـــار شُرعن حـــداد

أبدعتَ للأحياء كل بديعةٍ … هبةً فباعوها بسوق (مزاد) !!
أنبتّ للناس الحديد محرراً … لهمُ فكان سلاسل استعباد !
وتلفتَّ الإنسان يسأل حبَّه : … أدنا الصديق له بكيد أعادي ؟
بمآتم العدوان أُهدرتِ الرؤى … بيضاً يحاك لها ثياب حداد
جار القويّ على الضعيف وحزّ في … مهج الأسارى خنجرُ الجلّاد !

☆ ☆ ☆

أدعوك جبّار السماوات العلا … يا من بسمعك كل شاكٍ شادي
الظالمون بكل أرض أنشبوا … في الأرض مخلبهم وفي الأكباد
ضجّت ببغيهمُ الشعوب ألم يروا … شرراً وراء البرق والإرعاد ؟
وثنيّة الشيطان فيما زيّنوا … من خنق نبراسٍ وحرق مهاد
عاثوا ذئاباً في الورى وتألهوا … أرأيت آلهةً بلا عُبّاد ؟
كفروا بنعماء الحياة وأقسموا … أن يصلبوها والمسيحَ الفادي !
يا مرسل الطوفان سيلك في الثرى … للكافرين أراه بالمرصاد

مكمن العظمة في شخصية إقبال

باري

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

● مولود في سوريا عام ١٩٢٩ م .

● أتم دراسته الثانوية والشرعية في دمشق ، وحصل على الإجازة في الشريعة الإسلامية ، ثم دبلوم التربية ، ثم الدكتوراه في أصول الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر .

● تعين مدرساً في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، عام ١٩٦٥ م ، ثم عين رئيساً لقسم الفقه الإسلامي فيها ، ثم عميداً لها عام ١٩٧٧ م . وهو الآن أستاذ في قسم الفقه الإسلامي فيها . وعضو في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمّان .

● شارك في كثير من المؤتمرات والندوات وحلقات البحث العلمي في مختلف البلاد العربية والإسلامية وغيرها ..

● له مؤلفات في الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي والفلسفة والآداب والحضارة الإسلامية ، تبلغ قرابة ثلاثين مؤلفاً . من أبرزها :

- ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية .
- فقه السيرة النبوية .
- كبرى اليقينيات الكونية .
- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن .
- نقض أوهام المادية الجدلية .
- مسألة تحديد النسل وقاية وعلاجاً .
- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية .
- حوار حول مشكلات حضارية .
- من روائع القرآن .
- سلسلة (أبحاث في القمة) وهي تشمل تسع حلقات تعالج موضوعات إسلامية واجتماعية حساسة ، بأسلوب مبسط ، ومختصر .

مكمن العظمة في شخصية إقبال

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، أيها السادة والسيدات ، أيهـا الإخوة والأخوات . لاأبـالغ ولاأتكلف إن قلت لكم إنني أشعر بغبطة عظيمة أن وفقني الله تعالى لهـذا الاشتراك المتواضع في الحديث عن محمد إقبال ، في هـذا المحفل العظيم . وإذا كتبني الله عز وجل واحـداً من أفراد تلك القافلة التي تسير على شدو إقبال فأنعم بها من سعادة أكرمني بها الله عز وجل . ولكم سألت الله عز وجل بيني وبين نفسي أن يقذف في قلبي قبسـاً من ذلك الوقود الذي كان يتضرم بين جوانح إقبال .

مما لاشك فيه أيها السادة أن إقبالاً رجل عظيم فـذ ، وأنـه واحـد من أولئـك الذين لا يجود الدهر بأمثالهم إلا نادراً . غير أنـا عنـدمـا نتحـدث عن مزايـا هـذا الرجـل العظيم ، إنمـا نبتغي بـذلـك العبرة ، ونهــدف إلى تمثـل خطــاه في تلــك الخصائص والمزايا جهد الاستطاعـة . إذن ، لابـد أن نتسـاءل : أين تكمن عظمـة إقبال ؟

ومـا لا ريب فيـه أن عظمـة إقبـال هـذه ليست عبـارة عن محيــط متـلاطم لاحدود له ، حتى نعفى أنفسنا من تحديد جوانبها والإحاطة بفروعها وجذورها . فالرجل بشر من الناس ، وله مزايا نـادرة وبـارزة . ولكنهـا إنمـا تتجلى في بعض من جوانب حياته . فما هي هذه الجوانب ، وما هي المزايا النادرة التي امتاز بها ؟

لاشك أن عظمته لاتكمن في فلسفته . فما أكثر الفلاسفة الذين خاضوا غمار الفلسفة بأعمق مما خاضه إقبال ، بل ربما جاء إقبال بأفكار فلسفية خاضعة للنظر والنقاش . كما أنها لاتكمن في وجداناته الصوفية ، فالرجل ربما كان له أكثر من رأي في أكثر من زمن . في شؤون التصوف . ولاتكمن عظمته في شاعريته . فهنالك شعراء كثيرون من دونه . وما كان الشعر وحده ، بالغاً من العذوبة ما بلغ ، ليضفي وحده العظمة التي نراها في شخص إقبال على أي شاعر من الشعراء . إذن فأين تكمن عظمة إقبال ؟

إن عظمة إقبال تكمن في ذلك السر الذي متعه الله به (والذي سأتحدث عنه بعد قليل) فمكّنه من الخوض في غمار الحياة الغربية بكل مظاهرها العلمية والفلسفية والحضارية ، وأن يعيش أمداً طويلاً وسط بريقها الساطع ، دون أن يعشي شيء من ذلك كله بصره أو أن يبهر لبه وقلبه !.. بل كان كلما أوغل في الاطلاع على المعارف الغربية وزاد احتكاكاً بأنماطها الحضارية ، رجع إلى مزيد من التشبث بذاته والاعتزاز بهويته .

وإن هذا الأمر لعسير جداً على النفس الإنسانية تنفيذه ، وإن كان يسيراً على اللسان وصفه . ولكم سمعنا عن أناس ، تُدرج اليوم أسماؤهم في قائمة العظماء والمصلحين ، ما إن هبّت عليهم من بعيد رياح من مظاهر الحضارة الغربية وبريقها اللامع ، حتى زكمت الرائحة أنوفهم وأسكرت رؤوسهم ، وبهرت نفوسهم . فتراجعوا في صَغَار إلى الخلف ، ناسين هويّاتهم ، تائهين عن مقومات ذاتيّتهم ، وراحوا ينشدون اللحاق بالغرب من أي طريق وبأي مبرر .

ولكن إقبالاً خاض كما قلنا غمار الحضارة الغربية ، وتتلمذ على كثير من الأساتذة الغربيين ، ودرس ثم درَّس في ربوع أوربة وجامعاتها ، وأخذ أكثر من شهادة عالية منها ، وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد رجع بذاتية مستقلة أنصع

وضوحاً وأكثر شموخاً مما كان عليه سابقاً . بل أخذ يهتف على سمع العالم أجمع أن على المسلم أن يعتزّ بذاتيته ، وأن يتقي المزالق البراقة التي يتوهمها شراباً وهي سراب . وإنكم لتجدون كثيراً من شعر إقبال يتضمن هذه الدعوة الملحة بقوة واعتزاز كما يتضمن اعتزازاً غير محدود بهذا السر العظيم الذي متعه الله به . وهو اعتزاز نابع من اغتباطه العظيم بالفضل الذي أكرمه الله عزوجل به ، وليس آتياً من كبرياء نفسي لديه .

يقول : « لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي ، ويُعشي بصري . ذلك لأني اكتحلت بإثمد المدنية . لقد رحلت في أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير أن أُرْزَأ في عقيدتي وخلقي وصلتي بك . قد جلست في نارها بشجاعة وخرجت منها بسلامة ، كما كان شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام » .

ويقول : « لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرقبونني ويكمنون لي . ولكني لا أخافهم ، فأنا أحمل اليد البيضاء . لا تعجبوا إن اقتنصت النجوم وانقادت لي الصعاب ، فإنني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء فصارت أعلى قدراً من النجوم . وجرى في أثره الغبار فصار أعبق من العبير » .

ولكن من أين جاء هذا السر الذي كان يتمتع به إقبال ؟. وكيف استطاع أن يحصن نفسه ضد مزالق الغرب التي خاض غمارها ، وكيف تأتى له أن يخرج من تلك النار بسلامة ؟. وقد كان المتصور أن يكون مآله مآل أولئك الذين عشيت أبصارهم لمرأى الحضارة الغربية ، وأن يذهل عن ذاتيته كما ذهلوا ؟

معين هذا السر في حياته ، أنه بدأ منذ نعومة أظافره يسير في طريق تغذية ذاته وتنميتها . وقد كان أول معتمداته في ذلك واقع أسرته الإسلامية التي سمعتم الكثير عنها ، ثم كان يعتمد بعد ذلك على عقله الحر الذي أبى أن يبيعه ليسار أو يمين : نظر إلى ذاته من خلال عقله هذا ، فرأى أنه ليس أكثر من وعاء ممتاز

حشي بطاقات وصفات رائعة ينفعل بها ، دون أن يكون فاعلاً لشيء منها . وتأمل ، فرأى أن الذي أكرمه بهذه الطاقات والصفات ويجعلها تؤدي في كيانه عملها الرائع العظيم ، إنما هو الله عز وجل . فعلم أنه عبد مملوك لله عز وجل ، وأنه ليس أكثر من جهاز استقبال ينعكس إليه الإرسال من لدن خالقه . وقد قال العلماء قديماً : من عرف نفسه فقد عرف ربه : كلام منطقي ومنهجي . والتجربة خير شاهد على ذلك . وكل من لم يعرف ربه فلا شك أنه جاهل قبل ذلك بنفسه .

لما هدي محمد إقبال إلى هذا الطريق ووصل من خلاله إلى نعمة اكتشاف الذات ، أخذ يتابع السير فيه : كانت له أوراد ثابتة مستمرة من الأذكار . وكان مثابراً على تلاوة كتاب الله . وكان إذا قام يصلي جعل من صلاته أعظم غذاء لذاته ، فكان يجمع أفكاره ومشاعره كلها ليتصور أنه نجيٌّ الله ومناجيه . وكانت له قومة دائمة في الأسحار . فما من ليلة إلا ويستيقظ في سحرها ليناجي الله متبتلاً ضارعاً . وهو يعتز ويحمد الله بأنه لم يترك ورده هذا حتى في أسفاره المختلفة ، ويقول عن نفسه عندما كان في لندن : « على الرغم من أن شتاء بريطانيا شتاء قارص ، وأن لياليها أشدّ برودة ، فإني ماتركت الاستيقاظ باكراً في ليلة من الليالي قط » .

وكان يعتز بأنه يجد في ذلك غذاء إنسانيته وروحه ، وأنه لا يستطيع أن يفطم نفسه عن هذا الغذاء قط ويوصي بذلك كل من يحب أن يتنعم بأسرار الحياة الحقيقية . يقول في هذا الصدد :

« كن مثل فريد الدين العطار في معرفته وجلال الدين الرومي في حكمته أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن مثل من شئت في الدراية والحكمة ، ولكنك لن ترجع بطائل حتى تكون لك أنة في السحر . خذ مني ماشئت

يـارب ، ولكن لاتسلبني لـذة الأنين في الأسحـار . ولاتحرمني نعيمهـا » ويقـول أيضاً : « اللهم اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية ، وأيقظ الآلام والآمـال النائمة في صدورهم بنجوم سماواتك التي لاتزال سـاهرة ، وبعبـادك الـذين يبيتون الليل سجداً وقيامـاً ، ولا يكتحلون بنوم . أرزق الشبـاب الإسلامي لوعـة القلب وامنحهم حبي وفراستي . اللهم ارزق الشبـــاب أنيني في السحر ، وأنبت لصقـور الإسلام القوادم والخوافي التي تطير بها وتصطاد » .

وكم كانت له في ساعات السحر مناجاة منبعثة عن نشوة قلبه الملتاع ، تصعـد بالروح إلى عالم الملأ الأعلى ، ولا ريب أنه كان يشعر من خلال تلك المناجاة بلـذة علوية لا يعرفها إلا من ذاقها . كان مما يقول : « أنت غني عن العالمين وأنا عبـدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر . وإن كان لابدّ من حسابي فأرجوك يـارب أن تحـاسبني في نجـوة من المصطفى ﷺ ، فـإني أستحيي أن أنتسب إليـه وأكـون في أمته ، وأنا أقترف هذه الذنوب والمعاصي » .

وبالجملة ، أيها الإخوة ، فقد كان محمد إقبال يغـذي روحـه كما يغـذي أحـدنـا جسمه وغرائزه . وإذا غذيت الروح بغـذائهـا الطبيعي الـذي تتوق إليـه ، هيمنت على كيان الإنسان كله . وإذا هيمنت الروح على الكيان الإنسـاني لم تستطع بوارق الزيف أن تتخطف بصيرة صاحبها . ولابد أن يكتسب منها ميزانـاً دقيقـاً يعينـه في التفريق بين الشراب الحقيقي والسراب الوهمي . فهو يلتقـط الأول أينما كان ، ويبتعد عن الثاني أينما كان أيضاً .

ولكني قد أسمع عند هذا الكلام من يقول : الحـديث عن الروح ومقـاييسهـا حديث يندُّ عن القواعد العلمية ، ولا يتفق مع حقائق العلم لا سيا في هذا العصر . هذا شيء يقوله الشعراء تخيلاً ، ويتصوره الواهمون ليرضوا أوهـامهم التي لا حـدود لها .

والحقيقة أن الأمر ليس كـذلـك . والعلم ـ منطق العلم قبل أي منطق آخر ، يرفض هـذا التصـور الغبيّ . وأحب أن أقـول كلمـة وجيزة في هـذا الصـدد ، على هامش حديثنا عن محمد إقبال :

إن الإنسـان ثـلاثي التركيب . فهـو مركب من هـذا الهيكل الجسـدي ، ومن الغرائز الحيوانية المعروفة التي تشكل قـاسماً مشتركاً بين الإنسـان وسـائر الحيوانـات الأخرى ، ومن الروح التي هي سر لا نعلم حقيقته . هـذا السر الـذي ينعكس على الدمـاغ فيكون عقلاً ، ويشرق على القلب فيسمى وجـدانـاً ، وينتشر في كل جزء من أجزاء الجسد فيتحول إلى شعور نابض . هذه الروح ليست بالروح التي يجدهـا المعنى الطبي أبداً .وإنما هي سر هابط من الملأ الأعلى ، نازل إلى الإنسـان من عـالم علوي . ألم تقرؤوا قول الله عز وجـل ، وهـو يحكي خطـابـه للمـلائكـة : ﴿ فَـإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ روحي فَقَعوا لَهُ سـاجِـدينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] نسب هـذه الروح إلى ذاتـه ، وهي نسبـة علوّ وتكريم ، كما أنهـا نسبـة إجـلال عن أن يُحيـط بكنهها العقل .

هـذه الروح ، عنـدمـا قضى الله أن تهبـط إلى هـذا السجن الجسـدي الترابي ، استوحشت ، وأخذت تشعر بالحنين إلى العالم الذي انفصلت عنه ، وأخـذت تشعر بالأسى ، من جراء الحجب الكثيفـة التي أسـدلت بينهـا وبين ذلـك العـالم العلوي الذي كان وطناً لها . هـذا الحنين لا ينفـك عن الروح أيـاً كان الجسـد الـذي تقبع فيـه . ولكن الإنسـان ، بعـد ذلـك ، إمـا أن يتنبـه إلى حنين روحـه ، ويـدرك حقيقته ، ويعلم ترجمته ، فيعلم المـاضي الـذي جـاءت منـه ، والنهـايـة التي تقبل عليها ، فيتجه بالعناية إلى روحه . كما يتجـه بهـا إلى جسـده ، يقـدم إلى كل منهما الغذاء الذي يحتـاج إليـه . وعنـدئـذ يتحقق قـدر كبير من الانسجـام بين كل من الروح والجسد ، إذ يجنـد الثـاني نفسـه لحسـاب الأول ، فيـدور في فلكـه ويسعى لخدمتـه ، ويظـلان ينشـدان نشيـداً واحـداً . فعنـدئــذ تنتعش الروح ويتصـل

حـاضرهـا اليوم بمـاضيهـا المـدبر بـالأمس ، وتعيش في سعـادة مـع الأمـل المقبـل والرحلة الآتية .

وإما أن لا يلتفت هذا الإنسان إلى نداء الروح في كيانـه ، ويمضي مقبلاً على تغذية جسـده وغرائزه فقـط ، لا يلتفت إلى شيء آخر في حيـاتـه ، ولا يصغي إلى شيء من المنبهات والمنذرات التي تتعالى أصواتها من داخل عقله ووجدانه . فيلتفُّ على شعوره الإنسـاني من تلـك الشهوات الجسـديـة والغريـزيـة مـا يشبـه خيـوط العنكبوت ، خيـط إثر آخر . فتختنق مشـاعرهُ وتقوم الحواجـز بينهـا وبين حنين الروح ومتطلباتها . ويتكون من تلك الحواجز ما يشبه سجنـاً ثـانيـاً داخل سجن الروح الذي تعاني منـه . وعنـدئـذ ينقطع عن الروح غـذاؤهـا ، وتستبـد الغرائز والحاجات والمتطلبات الجسدية بالكيـان الإنسـاني كلـه . ويتحول هـذا الإنسـان عندئذ إلى شر من كثير من الدواب والحيوانات الأخرى .

ما الدليل على هذا الكلام ؟ إن هذا الذي أقولـه أيهـا الإخوة ليس خيـالاً ، ولكنه الحقيقة ، ومأيسر أن يجد كل منا مظاهرها ودلائلها في داخل كيانه .

من المعروف أن كل واحد منا عندمـا يصغي بسمعـه إلى أبيـات تتحـدث عن الأطلال أو الـذكريـات ، يهتز تـأثراً بمـا يسمع ، حتى وإن لم يكن لـه أي عـلاقـة بشيء من تلك الذكريـات ، وإن لم يكن يعيش مع عـالم الأطلال وليست لـه أي قصة معها . إنـه على الرغم من ذلـك ينتشي ويتـأثر لمـا يسمع ، دون أن يعلم لمـاذا يتأثر ومن أين ينبعث في نفسه هذا الشعور . يسمع مثلاً قول الشاعر :

ومن عجب أني أحنُّ إليهم وأبحث شـوقـاً عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم في سـوادهـا ويشكـو النـوى قلبي وهم بين أضلعي

يسمع أحدنـا مثل هـذا الكلام ، فيحس بمشـاعر خفيـة تهتـاج بين جوانحـه ، ويجد أن نشوة من التأثر تقيمه ولا تكاد تقعـده ، مع أنـه على يقين ربمـا بـأن ليس

بينه وبين هذا المعنى الذي يسمعه أي جذور واصلة ، وليست في حياته قصة حب ولا اشتياق إلى أي إنسان أو جهة معينة . فلماذا ؟ وما السبب ؟

إننا لو تلمسنا الجواب العلمي عن هذا السؤال لأدركنا الحقيقة التالية :

هذه الروح الجاثمة في كياننا تظل في حنين دائم إلى عالمها العظيم الفسيح الذي انفصلت عنه ، غير أنها قابعة في أعماق كيانك ، يمنعك من أن تسمع حنينها أو أن تتبيّن شيئاً من معناه ومدلوله ، ضجيج الغرائز . الهائجة في نفسك ، والشهوات التي يلتف سعيرها على سطح شعورك . ولكن عندما تسمع أذناك أبياتاً من هذا القبيل فبها تشوق إلى الحبيب أو حنين إلى الأطلال أو ذكريات لماض عزيز ، تهتاج الروح وتنتشي وتطرب لذلك . إذ يحرك أشجانها ويزيد في لواعج أشواقها . غير أن هذه المشاعر الروحية تنتشر في إحساسك وتتعالى إلى فكرك مبهمة غامضة غير مفهومة ولا مترجمة . إذ إن عقلك مشغول عن الروح ومشاعرها وأشواقها بغرائزك وشهواتك الجسدية . بل كثيراً ما تصادر النزوات النفسية والغرائز الشهوانية تلك الأشجان واللواعج الروحية لحسابها ، فتترجمها إلى لغتها ، وتجعلها تعبيراً عن متطلباتها . مع أن الحقيقة ليست كذلك .

هذا المعنى الحقيقي الذي يعيش في كيان الإنسان ، ذكره الفلاسفة بمقاييسهم الفلسفية والعلمية وذكره أصحاب المواجيد الإيمانية ، من المتصوفة ، بمقاييسهم الوجدانية ، كما ذكره الشعراء اعتماداً على أحاسيسهم الشعرية . ولعلنا جميعاً نتذكر تلك القصيدة الرائعة لأبي علي بن سينا ، عن الروح . ولعل من الخير أن نستعيد إلى الذاكرة بعض أبياتها . يقول :

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارفٍ ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ... ألفت وصالك وهي ذات تفجّع

أنفت ومـا ألفت فلمـا واصلت ألفت مجـاورة الخراب البلقـع
وأظنهـا نسيت عهـوداً بـالحمى ومنـازلاً بفراقهـا لم تقنـع

إلى أن قال بعد ذلك :

تبكي وقـد ذكرت عهـوداً بـالحمى بمـدامـع تهمي ولمـا تقلـع
حتى إذا حـان الرجـوع إلى الحمى ودنـا المسير إلى الفضـاء الأوسع
أخـذت تغرد فـوق ذروة شـاهـق والعلم يرفـع كل من لم يرفـع
قـد كان أهبطهـا الإلـه لحكمـة خفيت عن الـذهن الـذكي الألمعي

إن هـذا المعنى لم يقلـه ابن سينـا من منظـور ديني ، وإنمـا قرره من خـلال معـانـاتـه الفلسفيـة . وكثيرون هم أولئـك الـذين يقـدرون ابن سينـا فيلسوفـاً ، ولكنهم يعرضون عنه ولا يعبؤون به فقيهاً مؤمناً بالله عز وجل . حسنـاً .. ولكن ابن سينـا إنمـا يقول هـذا من خـلال فكره الفلسفي ، لا بـدافـع تسليمـه الـديني . واسمعوا ما يقوله ، في تأكيد الحقيقة ذاتها ، باحث آخر ، ولكن من خلال منظـار ثانٍ ألا وهو المنظار الوجـداني الصوفي .. إنـه مولانـا جلال الـدين الرومي ، ذاك الذي كان يعتز به محمد إقبال أستاذاً روحياً له ، ويؤكد في أكثر من مناسبة تـأثره الشديد بـأفكاره ووجـدانـه . جلال الـدين الرومي يعبر عن هـذه الحقيقـة ذاتهـا ويؤكدها ، ولكنه يؤكدها ويجسدّها ، في قصة النـاي !.. فـإن قصـة النـاي هي قصة الروح تماماً . يقول :

« استمع للناي كيف يقصّ حكايته . إنه يشكو آلام الفراق . إنه يقول : إنني منذ قُطِعْتُ من منبت الغاب ، والناس رجالاً ونسـاءً يبكون لبكائي . إنني أنشـد صدراً مزقه الفراق حتى أشرح له ألم الاشتياق . فكل إنسان أقام بعيداً عن أصلـه ، يظل يبحث عن زمان وصله . لقد أصبحت في كل مجتمع نـائحـاً ، وصرت قرينـاً للبائسين والسعداء ، وقد ظن كل إنسان أنـه قـد أصبح لي رفيقـاً ، ولكن أحـداً لم ينقّب عمـا كمن في بـاطني من أسرار . وليس سري ببعيـد عن نـواحي . ولكن أنى

لعينٍ ذلك النورَ ، أو لأذنٍ ذلك السمع الـذي بـه تُـدْرَك الأسرار ؟.. وليس الجسم بمستور عن الروح ولا الروح بمستور عن الجسم . ولكن رؤيـة الروح لم يـؤذنَ بهـا لإنسان .

إن صوت الناي هذا نارٌ لا هواء .. فلا كان من لم تضطرم في قلبـه مثل هـذه النار » .

نعود الآن إلى محمد إقبال .. هـذا الرجل الـذي عرف الحقيقـة وأحسّ بهـا من منظار علمه الإيماني ، ومعاناته الفلسفية ، وتجـاربـه مع الـذات . لقـد وقف هـذا الرجل يتساءل : كيف أغذي هذه الروح وأسعى للمحافظة على أسرارها ؟ وجاءه الجواب من الله عز وجل : إن الإسلام هو المتكفل بكل ذلك .

وما الإسلام أيها الإخوة ؟ إنه ليس أكثر من مائدة رصفت فوقها ثلاثة أنواع من الأغذية . نوع منها للجسد ومتطلباته . ونوع للغرائز الحيوانيـة التي تعيش في كياننا . ونوع ثالث للروح وأسرارهـا . وقـد تم التنسيق بين هـذه الأنواع الثلاثـة من الأغذية ، بحيث لا يطغى نوع منها على نوع .

إننـا إن عـدنـا إلى الإسلام في جوهره وتفـاصيلـه ، فلن نجـده أكثر من دعوة للإنســان ، ذي التركيب الثـلاثي ، إلى أن ينظر إلى كيـانـه هـذا فيتبين حقيقتـه وتكوينه ، ثم ينميه ويغذيه تغذية كاملة ، دون أن يهمل واحداً من هـذه الأركان الثلاثة التي يتكون منها ؛ فلا يدع الجسم لصالح الروح ، ولا يهمل الروح لصـالح الغرائز . لا بل عليه أن يدرك أنه إن فعل شيئاً من ذلك عاد بـالضرر إلى أجزائـه الإنسانية كلها . فإهمال الروح يعود بالضرر إلى كل من الغريزة والجسد ، سواء في كينونته الفردية أو تركيبه الجماعي . كما أن إهمال الجسم أو الغرائز الإنسـانيـة لابـد أن يعود بالضرر إلى الروح ذاتها .

ذلكم هو الإسلام ، في كلمة جامعة وجيزة . وذلكم هو المحور الذي يدور عليـه كل ما فيه من شرائع وأحكام . ولما أصغى محمد إقبـال إلى هـذا النـداء الإلهي ، من

خلال الإسلام ، وجد السبيل إلى تغذية ذاته وكيانه الإنساني المتكامل ، وسار في هذا الطريق منذ نعومة أظافره . ومن أروع ما رأيت له من النثر ـ ولمحمد إقبال نثر عميق لا يقل عن شعره تأثيراً ورواء ـ هذه الكلمات التي قالها في هذا الموضوع ذاته ، من خطبة ألقاها في الحفل السنوي للرابطة الإسلامية في مدينة (الله آباد) عام ۱۹۳۰ م :

« إن الإسلام يقرر أن الإنسان وحدة كاملة ، دون فصل في الأحكام والمصائر بين المادة والروح . فالقربات التعبدية ، والمصالح الدنيوية ، ومساجد العبادة ، ومناصب الرئاسة ، وميادين العمل في المادة والروح ، إنما هي أجزاء متعددة لكلٍ واحد . فإن هذا الإنسان لم يسكن عالماً نجساً يتحتّم عليه أن يتخلص منه بالتماس الهجرة إلى عالم روحي نقي . فالمادة التي ترقى بها تعاليم الإسلام وتنظمها ، ليست سوى شكل من أشكال الروح ، ومظهر آخر لها في حدود الزمان وقيود المكان » .

وهنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام التصوف في حياة إقبال . ولست أدري أيها الإخوة ، لماذا أكره استعمال كلمة (التصوف) هذه ، مع العلم بأنني متفاعل مع المضمون الحقيقي لهذه الكلمة تفاعلاً لا حدود له . لماذا ؟

ربما لأن مضمون هذه الكلمة في حدودها الإسلامية الحقيقية أعظم بكثير من هذا العنوان الصغير . وربما ـ وهذا سبب آخر من الأهمية بمكان ـ لأن كلمة (التصوف) هذه ، كلمة مطلقة عن الضوابط والقيود ، يتسنى لأي رجل من الناس ، لصاحب أي بدعة ـ لصاحب أي نحلة .. لصاحب أي فلسفة .. أن يضع من الأفكار ما يشاء ، ثم يسقط على أفكاره هذه عنوان (التصوف) . وكم فعل زنادقة ذلك . ولكم أقدم إباحيون على هذا .

نعود فنقول : إن المعنى العظيم الذي تحصنت فيه الذات العلوية لمحمد إقبال ، هو المعنى الإسلامي المتكامل الذي يعنى بكل من الروح الإنسانية وهيكلها

الجسدي ، وهو المعنى الذي يعبرون عنه بالتصوف . حسناً . فلنجار الناس في هذه التسمية ، على أن نتذكر تلك الكلمة العظيمة التي قالها أحد العلماء الربانيين قديماً : « كان التصوف في صدر الإسلام مسمى لا اسم له . ثم أصبح اليوم اسماً لا مسمى له » . المعنى الحقيقي السليم للتصوف الذي تأثر به إقبال ، وأخذ به نفسه ، هو هذه المائدة الإسلامية العامرة . هو التنسيق المتكامل بين غذاء الجسد من مأكل وملبس ومأوى . وغذاء الغرائز والمشتهيات الإنسانية ، وغذاء الروح بكل تطلعاتها وأشواقها . التصوف في حياة إقبال لم يكن أكثر من معادلة دقيقة بين هذه الجوانب الثلاثة . وكان التصوف عبارة عن إعطاء كل ذي حق من أجزاء الإنسان حقه .

فالله عندما خاطب الإنسان المبجل في عينه والمكرم لديه ، إنما نبهه إلى حقائق ، وأمره بأوامر لم تكن في مجموعها أكثر من لباس فُصِل على قدر كيانه . فكأنه يقول له مشيراً إليه : هذا هو كيانك الإنساني ، وذلك هو الثوب المفصَّل على قدرك ، فالبسه ، واعتزّ به ، واجعله وقاية لك وحرزاً في رحلة هذه الحياة التي تجتازها فوق هذه الأرض . سمّه بما شئت : تربية .. سلوكاً ، تصوفاً . ولكن مامن ريب أن أولى الأسماء به ما سماه به المصطفى ﷺ . ألا وهو الإحسان . وهو ذروة الإيمان والإسلام .

ولكم وقف محمد إقبال رحمه الله أمام فلسفات جانحة تسللت إلى هذا المضمون الإنساني العظيم ، ينقدها ويفندها ويظهر التبرم بها والإنكار لها . من أبرزها ذلك التصوف الذي ينسى الجسد وحاجات الكيان الإنساني ، بحجة الاهتمام بالروح والإقبال عليها ، ذلك التصوف الذي يغري الإنسان بالتحول إلى عربة عرجاء مائلة تسير على عجلة جانبية واحدة . ولكم وقف إقبال يردّ بشدة على أولئك الذين أدخلوا جوانب من الفلسفة الإغريقية أو الوجودية ، في الإسلام ، بعد أن صبغوها بصبغة التصوف . ولقد كانت وحدة الوجود واحدة من هذه التصورات التي

انتقدها إقبال . ولكنه كان في نقده كله رفيقاً ورقيقاً وبناء . ومن أجمل ما قاله في سياق حديث له عن الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله تعالى : « إنه إنسان مسلم عظيم ، وإنه ذو قلب مشرق ، ولكني أختلف معه فيما ذهب إليه من فكرة وحدة الوجود » وربما قال كلاماً آخر في مكان آخر . ولكن هذا هو الكلام الموزون المتفق مع حقائق الشرع وموازينه . وما أكثر أولئك الذين لا يبالون بالفرق بين وحدة الوجود بمعناها الفلسفي المادي العميق ، وبين ما يسمى بوحدة الشهود التي هي شعور نفسي يتعرض له في حالات معينة كل إنسان . وبسبب عدم التفريق بين مضمون هاتين الكلمتين ، وقع نزاع واضطراب ، وثارت خصومات في هذا الصدد . ونحن نعلم أن الوجود الحقيقي هو وجود واحد . كما نعلم أن الشجرة العظيمة لها جذع واحد . ولكن لا ضير أن تكون الشجرة واحدة وأن تكون فوق جذعها مظلة كبيرة من الأغصان المتفرعة الكثيرة . هذا الوجود منبعه واحد ومعينه واحد ، ولكن الله خالق كل شيء فرقه أغصاناً وفروعاً في مظاهر شتى من المخلوقات . وقد تختلف العبارات ، وقد تتعدد الأساليب ، ولكني ما أظن أن أحداً من المسلمين ابتعد عن حقيقة هذا المضمون .

أما وحدة الشهود ، فهي حالة من الجدير أن تنتاب كل مسلم ، إذا أمعن في تغذية كيانه الروحي كما كان يصنع إقبال ، في تقلباته وأحواله كلها : في صلاته ، في تلاوته للقرآن ، في سائر عباداته . وإذا كان الإنسان كثير المراقبة لمولاه ، من حيث كان كثير المراقبة لعبوديته . فإن الشأن في هذا الإنسان أنه ينظر إلى المكونات ، ولكنه لا يراها نابضة إلا بالمكون . وذلك لأن عواطفه الرادعة والدافعة والمجدة كلها اصطبغت بالإسلام كما اصطبغت بحقائق الإيمان . فإذا نظر إلى مظاهر الجمال اهتزّ طرباً لخالق هذا الجمال ، ولم ير في هذا الجمال إلا صفة الجميل الأعظم . وإذا رأى مظاهر قدرة الله عز وجل ، حملقت عيناه في صورها ، ولكن بصيرته تطوف حول صفة القدرة الإلهية .

هذه هي وحدة الشهود ، وهي حالة تنتاب الإنسان بالنسبة إلى معايشه الدنيوية ووجداناته النفسية . قلت مرة ، في بيان هذه الحقيقة : لو أن امرأة شديدة الحب لوليدها الوحيد ، ضرب الدهر بينه وبينها بحجاب ، ومضت على ذلك سنوات ، وهي لاتعرف له مستقراً ؛ وفجأة يأتيها ساعي البريد بكتاب يدفعه إليها .. تفض الكتاب وتنظر إليه ، وإذا هو من ابنها الغائب عنها منذ سنوات . كيف يصبح حالها في تلك اللحظة ؟ إنها تحملق في الورق وتحملق في الكتابة والخطوط ، وترى الحبر ولونه والورق وشكله . ولكنها في الحقيقة لاتبصر ورقاً ولا ألواناً ولا خطوطاً ، وإنما هي تبصر من خلال مضامين الكلام المرسوم ابنها وفلذة كبدها ، أجل ، فإن خيالها وأفكارها وسائر مشاعرها تكون تلك الساعة منصرفة إلى ذلك العالم النائي حيث يعيش ابنها . هذه حالة إنسانية تشيع بين الإنسان ونظيره . فكيف بالعبد تجاه سيده ومولاه ؟

أيها الإخوة ـ لاأحب أن أطيل ، فإني لأستمتع بالحديث الذي أسمعه عن محمد إقبال ، في كثير من الأحيان ، أكثر مما أستمتع بالحديث الذي أقوله عنه . غير أني أحب أن أنهي كلمتي هذه بتذكرة :

نحن لماذا نحتفي بإقبال ؟ أما إنه لامعنى لاحتفائنا به ، إنْ لم نجْنِ من ذلك ثمرة العبرة . لامعنى لاحتفائنا به إن لم نحاول أن ننهل من الشراب الذي انتشى به إقبال . إن إقبال كان يعيش حياته متحرقاً علينا ، كان يحب أن نشعر بمشاعره وأن نتلظى بناره . إذن فإذا أردنا أن نحيي ذكرى إقبال حقاً فلنقتطف العبرة من ذكراه .

إقبال عاش مع الهموم التي كان يتقلب فيها الإنسان في شتى أطراف المعمورة ، لاسيما الإنسان المسلم . كان يعلم مشكلات الرأسمالية ومشكلة الظلم ، ويعلم المشكلات الاقتصادية ، ويعلم المشكلات السياسية ، ويعلم مشكلات الاستعباد والاضطهاد ، كان يعلم ذلك كله . ولكن محمد إقبال زاد على ذلك أنه

عثر على المفتاح الذي إن استعمله المسلمون وأداروه على وجهه تخلصوا من سائر المشكلات الاقتصادية ، وتخلصوا من الذل والاستعباد وتخلصوا من التفرق والتمزق . فتضاعفت همومه بسبب ذلك ، فراح يصرخ وينادي دائماً : أيها الناس ، إن مشكلاتكم التي تضجون منها ، حلّها بيدي ، وهذا هو المفتاح ، فما عليكم إلا أن تتعرفوا عليه ثم تستعملوه على وجهه .

وهذا المعنى الذي كان يتكرر في شعر إقبال وينادي به من حوله ، لا يزال ينادي به من خلال سائر ماتركه من آثار وأشعار مضرجة لا بدموعه بل بدماء قلبه . ولكم كان ينبه إلى أن سائر مانراه حولنا من المشكلات ، إنما هو فروع لمشكلة جذرية واحدة ، هي ضياعنا عن الذات . وذاتنا الحقيقية لا يمكن العثور عليها في شرق ولا غرب . وإنما يمكن أن نعثر عليها بين جوانحنا ، يمكن أن نعثر عليها من خلال إدراك هويتنا .

إذن ، فلنحاول أن نعثر على هوياتنا وأن نكتشف ذاتنا ، ولنستعمل المفتاح الذي إليه المرجع في حل كل مشكلاتنا . في قصيدة الشكوى وجواب الشكوى ، أبيات لخص فيها مشكلات المسلمين ، ولخص فيها الطريق الذي يتحتم عليهم أن يسلكوه ليتخلصوا من قيودها ومآسيها . وها أنا أختم كلمتي هذه بهذه الأبيات ، أتلوها على مسامعكم . راجياً أن يتحول صداها في آذاننا جميعاً إلى عمل .

يقول محمد إقبال ، في جواب الشكوى (وهو جواب آت من عند الله عز وجل) :

عطايانا سحائب مرسلات ... ولكن ما وجدنا السائلينا
وكل طريقنا نار ونورٌ ... ولكن ما رأينا السالكينا
ولم نجد الجواهر قابلاتٍ ... ضياء الوحي والنور المبينا
وكان تراب آدم غيرَ هذا ... وإن يك أصله ماء وطينا

ولو صدقوا وما في الأرض ماء   لأجرينا السماء لهم عيونا

☆ ☆ ☆

وأخضعنا لملكهم الثريا   وشيدنا النجوم لهم حصونا
ولكن ألحدوا في خير دين   بنى في الشمس ملك الأولينا
تراثُ محمد قد أهملوه   فعاشوا في الخلائق مهمَلينا
تولّى هادمو الأصنام قدماً   فعادلها أولئك يصنعونا
أبــاهم كان إبراهيم لكن   أرى أمثال آزر في البنينا

☆ ☆ ☆

وفي أسلافهم كانت مزايا   بكل فم لذكراها نشيد
تضوع شقائق الصحراء عطراً   برياها وتبتسم الورود
فهل بقيت محاسنهم لديكم   فيجمُلَ في دلالكم الصدود
لقد هاموا بخالقهم فناء   فلم يكتب لغيرهم الخلود
وكوثر أحمد منكم قريب   ولكن شوقكم عنه بعيد

تحيّة لإقبال

الدكتور صلاح الصّاوي

الدكتور صلاح الصّاوي

● أستاذ في جامعة طهران في جمهورية إيران الإسلامية .

تحية لإقبال

عـاهـلَ الشعرِ تحيـةْ　　بحروفٍ عربيَّـــــةْ
طـالَما اشتقتَ إليهـا　　وهي بالشوقِ حفيَّـة
أنتَ منهـا قلبُهـــا النـــابضُ حبـــاً وحميَّـــة
وهْي منـكَ الخـافِقُ الــذكِّيرُ صبحـــاً وعشيَّـــة
إنَّ في قلبـــكَ لــلإلهـــامِ أُذْنـــاً نبـــويَّـــة
تسمـعُ الحرفَ بُراقـــاً لمقـــامـــاتٍ عَلِيَّـــة
فــإذا الآيُ فُيــوضـــاتُ فَراديسَ سَنِيَّـــة
كيفَ تَفْنَى ، كيف تَحْيا ، شـاعرٌ حـالَ مَعِيَّـة
ويَراعُ الشـاعِرِ المـوْهـوبِ عـودٌ عَـدَنِيَّـة
تُسْكِرُ الـدنْيـا جميعـاً بنَشيـدِ الأَحَـدِيَّـة
ايـهِ يـا شَمْسـاً تَجَلَّتْ في المروجِ الحِكَميَّـةْ
فَــأنــارَتْ في سماءِ الفِكْرِ والقَلْبِ دَجيَّـــة
أطْلَقَتْ لُسْنَ المَرايـا بـالمهـايـا عَلَنِيَّـــة
فَسَمِعْنـا قِصَّـةَ الْكَـوْنِ فُصـولاً حَـدَثِيَّـة
وشَهِـدْنـا الْماءَ فَنَّـانَ الخُطَـوطِ الأُفُقِيَّـة
يُبْـدِعُ الأَكْـوانَ آيـاتِ جَمالٍ جَسَـدِيَّـة
أيُّ سِرٍّ فيـكَ يـا مـاءُ تَصَبَّى البَشَرِيَّـة

كُلُّنـــا في حـــانَـــةِ الحُبِّ سُكارَى الْكَرَمِيَّـــة
أيُّ ســـاقٍ ، أيُّ صَهْبـــاءَ بِعَيْنٍ عَسَلِيَّـــة
تَمْنَـحُ الفـانِي خُلُـوداً بـالعطـاءاتِ سَخِيَّـة
لا تَسَلْني وسَـلِ البُلْبُـلَ سكْرانَ القَمَرِيَّـــة
مـا الـذي يَصْدَحُ فيـهِ بـالَمثـانِي السَّحَرِيَّـة
وفَراشـاتُـكَ مــاجُـوسِيَّـةِ القلْبِ ذَكِيَّـة
فَلَهـا في الكَعْبَـةِ اللَّهْبـاءَ وَصْـلُ القِـدَمِيَّـة
تَرْفَـعُ الـذَّاتَ إلى الـذَّاتِ بُخـوراً وهَـدِيَّـة
فـإذا الكَثْرَةُ تَعـدادُ المرايَـا ، عَـدَدِيَّـة
إنْ بَـدا الـواحِـدُ فـالأكْوانُ صِفْرٌ عَـدَمِيَّةْ
ليسَ إلاَّ في فـؤادِ الـوَرْدِ عِطْرُ الأَزَلِيَّـــةْ

☆ ☆ ☆

حارسَ الشَّرْقِ تَحيةْ مِنْ بـلادٍ عَرَبِيَّـــةْ
طـالمـا اشْتَقْتَ إليها وهْيَ بالشَّوقِ حَفِيَّة
أنتَ مِنْهـا عَبَـقُ العِشْـقِ بـآفـاقٍ زَكِيَّـة
وهْي منـكَ الإثْمِـدُ المَكِّيُّ نُـورُ الْحَـدَقِيَّـة

☆ ☆ ☆

خـالـدٌ أنتَ خلـودَ النَّيِّرات القُـدُسِيَّةْ
لا يُـواريـكَ زمـانٌ لا تُـواريـكَ مَنِيَّـة
مـا سِـوَى أنْ تَغْرُبَ الأَنْـوارُ والأَنْجُمُ حَيَّـة
لـك في الـدهر عروسُ الـذكريـات الـذهبيـة
لـكَ في القَلْبِ ودودُ الـواشِجـاتِ الرَّحِمِيَّـة

☆ ☆ ☆

أو يـــأْتي من أبيٍّ مــؤمنٍ غيرُ أَبيَّـــة ؟!
إنْ يكُنْ قَطْفُ فِلَسْطينَ مُصــابـــاً وبَلِيَّـــة
وَصْـلُ پـاكستـانَ بـالإسـلام سَلْوَى قَـدَرِيَّـة
غَيْرَةٌ لِلْحَـــقِّ أَصْرى من لَهيبِ العَصَبيَّـــة
زِدْتَهــا غُنْماً عظيمــاً لاارْتِضـاءَ البَــدَلِيَّـــةْ
هي من آيـاتِ إخْـلاصِـكَ لِلْحَـقِّ جَلِيَّـــة
كيفَ تُنْسَى أَلْمَعِيّــاً مَــدَّ لِلــدِّين نَــدِيَّـــة
وصَحــابِيّــاً تَــأَسَّى في خُطــاهُ العَمَلِيَّـــة
جَــدَّدَ الفَتْـحَ وأحْيَــا عِــزَّةً أَنْـــدَلُسِيَّـــة
وأَمــــانِيَّ بُخَـــارَى وَسَمَرْقَنْـــدَ أَسِيَّـــة
بسَـــلامٍ ، لا بسَيْفٍ أو عَـــوالٍ أَسَلِيَّـــة
خَــالِـــدٌ أنتَ ويَفْنَى كلُّ من خَــانَ نِبيَّـــه

☆ ☆ ☆

أنتَ يــاإقْبــالُ يــاإنســانُ روحٌ أَبَـوِيَّـــةْ
قـد كَسَتْنـا من صَفـاهـا سَابِغَـاتِ الأَخَـوِيَّـة
سُنْــدُسَ الحـقِّ واِسْتَبْرَقَ عِـزِّ الصَّمَــدِيَّـــة
صِبْغَـــةَ اللهِ لِبـــاسَ الخَيْرِ تَقْـوىً وتَقِيَّـــة
لِتَطِيبَ النَّفْسُ في زِيِّ الهُـــــداةِ كَسِيَّـــة
وتَراءَى أُمَّـــةُ الإسْـلامِ مَشْـقَ الأُمَمِيَّـــة

☆ ☆ ☆

فَتَعَرّينــا وبَــانَتْ كلُّ شَـوْهــاءَ رَدِيَّـــةْ
لم نُراعِ اللهَ أو نَرْعَ الْحــــدودَ النَبَــوِيَّـــة

لا تَطَهَّرْنــا بمــاءٍ يَبْعَثُ الأَمْـواتَ حَيَّـةْ
أو تَتَبَّعْنــا نَبِيّــاً أو تقبَّلنَــا وَصِيَّــة
وتَبَـدَّلْنـا الهُـدَى ثَـوْبـاً بِـأَسْمَـالَ زَرِيَّـة
ورَجَعْنـا قَـوْمَ نـوحٍ أمَّـةَ الكُفْرِ عَصِيَّـة
أُذُنٌ صَمَّـا وعَيْنٌ في الغَشَـاواتِ عَمِيَّـة
فـابْتُلينَـا شَرَّ طُـوفـانٍ طَغَى مَـدَّك أَتِيَّـة
أَيْنَ ؟! لا عـاصِمَ إلاَّ أَنْ نكـونَ رَعِيَّـة
فـالسَّماواتُ لَهيبٌ والأراضينُ لَظِيَّـة

☆ ☆ ☆

خَلِّني آسُـو فُـؤَادِي من تَبـاريـحَ شَكِيَّـةْ
جِـدُّ جِـدٍّ ، غَيْرَ أنِّي قَـدْ أَلِفْتُ الهَمَجِيَّـة
لَمْ يَعُـدْ لِلنَّظْمِ عِنْـدِي أيُّ طعمٍ ومَـزِيَّـة
مُنْـذُ أَضْحَتْ قَـوْلَـةُ الحـقِّ بـلاءً وَرَزِيَّـة
منـذُ أمْسَى الشـاعرُ الـزَّنْجيُّ لِلَّـونِ ضَحِيَّـة
منـذُ أضْحَى الخبزُ سَجَّـانـاً وقَيْـداً لِمَطِيَّـة
واسْتَبَـدَّتْ بـالمقـاديرِ فُنـونُ السَّبُعِيَّـة
منـذُ قَفَّى المِـدْفَعُ الرَّشَـاشُ بـالقَتْلِ دَوِيَّـة
وغَـدا القتـلُ ضَروراتِ بَقَـاءٍ حَيَـوِيَّـةْ
وعيـالُ اللهِ قُرْبَى النَّـزواتِ الـدَّمَـوِيَّـة
وبـلادُ اللهِ أسْـلابَ الغُـزاةِ التَّتَرِيَّـة
منـذُ عـادَتْ لِلمِيسَ الشَّهـواتُ الـوَثَنِيَّـة
وإذا النَّفْسُ اسْتَبَـدَّتْ تَتَعـالَى الصَّنَميَّـة
يُصْبِـحُ المـالُ إلهـاً والحَـديـدُ نَبيَّـه

فَتَجَلَّى الْقَهْرُ يَـومِي بـــالجَحِيمِ النَّـوَوِيَّـــة

☆ ☆ ☆

أينَ لِلْحُبِّ مجـالٌ ، أينَ يـا روحي سَكَنِيَّــة
أين صــوفِيَّــــةُ فكْرِي أين مِنِّي النَّغمِيَّـــة
آه من ذُلِّ اغْترابِي في الخَرابَــــات دَنِيَّـــة
لم تكُنْ غُرْبَتُنَـــــا غيرَ تكْفيرِ خَطِيَّـــــة
فَغرِقْنـــا في الْخَطـــايَـا نَتفـانَى بشَهِيَّـــة
آهِ يـا إنسـانُ يـا قـاتِـلُ يـا كُـلَّ بَلِيَّــة
لا يَغُرَّنَـــكَ صبرٌ إنمـــا الحِلْمُ رَوِيَّـــة
فـالأعـاصيرُ فُجـاءاتُ المَقَــادِيرِ عَتِيَّــة
كَيْفَ شَـاءَتْ حِينَ شـاءَتْ إنَّـهُ الأمْرُ مشِيّـة
أينَ يـــا إقبـــالُ لِلصُّلْبِ لَهيبُ الحَرَكِيَّـــة
أين لي مِنْـكَ قَصيـدُ المعجـزاتِ الـوَلَـوِيَّـة
أينَ نَهْرُ العِشْـقِ يَسْتَـافُ الجِبـالَ الحَجَرِيَّــة

☆ ☆ ☆

رائِدَ الوَحْدَةِ حـدِّثْ شَيْخَـةُ المهْـدِ صَبِيَّـةْ
عـافَهـا القـومُ وراحـوا لِـدُمَيَّـاتِ المـدَنِيَّـة
إنَّ وَأْدَ البِنْتِ من سُنَّـــةِ جَهْـلٍ عَرَبِيَّـــة
والنَّــواعيرُ تُغَنِّي بـــدُمـــوعٍ شَفَقِيَّـــة

☆ ☆ ☆

رائِـدَ الـوَحْـدَةِ والنُّصْـحُ زَكَـاةٌ وَوَصِيَّـةْ
أُمَّـةٌ سـادتْ ثم هـانَتْ كيف ترتَـدُّ قَـويـة ؟!

تُنْكِرُ العقْـلَ ، وشَبَّتْ في الخِـلافـاتِ عَتِيَّـــة
إيـهِ ، قـد أَعْيـا أسـاهـا أَمْهَرَ النُّطْسِ دَوِيَّـة
أيُّ داءٍ ليسَ فيهـــا شِرَّةٌ منـــه ، وَبِيَّـــة
أَنْهَــكَ السُّقْمُ قُــواهــا عَنْ تَنَــادٍ لِرَزِيَّـــة
لـو تنـادَتْ فَخِـداعٌ ، ليسَ عَنْ صَفْـوِ لَـوِيَّـة
تَتَهـاوَى لِلْمَنَــايــا جِـدٌّ وهْنــاءَ رَخِيَّـــة
كيفَ يَرْتَــدُّ شيـــابٌ فَتُرَى بَعْـــدُ فَتِيَّـــة
إيـــهِ حَــدِّثْ أيُّ طِبٍّ لِتُرَى وَهْيَ بَرِيَّـــة
يَجْمَـعُ الأَشْـلاءَ في دَقَّــةِ قَلْبٍ وَتَرِيَّـــة ؟!

☆ ☆ ☆

أتَرَى الأَفْـلاكَ نَظْماً ليس فيهَـــا عَفَـوِيَّـــةْ
من دَقيـــقٍ لجليـــلٍ في نعيمِ التَّبَعِيَّـــــة
والمسيرات مـــداراً والبَرايَـــا كُرَوِيَّـــة
نـــاعِماتٍ في ودادٍ وائْتِـــلافٍ وسَجِيَّـــة
لا تَرَى فيهـا اخْتِـلافـاً أو فُضـولَ العَبَثِيَّـة
عـــالَمٌ سَكْرانُ بِـــالْبَهْجَـــةِ وافٍ لِـوَفِيَّـــة
يَحْتَسيهـــا في اكْتِمالِ الـــدَّوراتِ الفَلَكِيَّـــة
فـإذا العــاشِقُ والمعْشـوقُ والعِشْـقُ سَـوِيَّـة
وَحْـــدَةُ الْعِشْـقِ نِظـــامٌ وحَيَـــاةٌ أبـــدية
وحيـــاةَ الأَرضِ أدواراً تتـــوالى زَمَنِيَّـــةْ
مِنْ صبـــاحٍ لصبـــاحٍ لِـوُجـوهٍ قَمَرِيَّـــة
فـــإذا الابنُ أبٌ لِلْغَـــدِ والأُمُّ بُنَيَّـــة
ومِنَ البِـــذْرَةِ للبـــذرةِ خضراءُ جَنِيَّـــة

تَصْدُقُ الكَرْمَةَ وَعْدَ الرَّقصاتِ السَّنَوِيَّة
وتُرابٌ يتَعالَى في فُنُونِ الشَّجَرِيَّة
وهِيَ التِّينَةُ تينٌ والكرومُ العِنَبيَّة
لا تخُونُ النَّوعَ أو تَبْغِي ضَياعَ البَدَلِيَّة
حَسْبُها تَرْبِطُ أصْلَيْنِ بِشَوْقٍ وَلَهِيَّة
فَتَلاقِي الْجِذْرِ والبِذْرَةِ تَجْدِيدُ الْحَيَوِيَّة
فِطْرَةُ الكَوْنِ تَراها وَحْدَةً في الحركيَّة
حَرَكاتٌ في صدورٍ لرجوعٍ ثَنَوِيَّة
فَهْوَ الأوَّلُ والآخِرُ قُطْبُ الأبَدِيَّة
فإذا أمْسَكَ رَوْحٌ لم تَعُدْ مِنْهُ بَقِيَّة
مثلُ أوراقِ الخَرِيفِ تَهاوَتْ عَدَمِيَّة
وإذا الجَوْزاءُ حادَتْ شَعْرَةً فَلَكِيَّة
تَفْقِدُ النَّظْمَ وتَهْوِي في جَحيمِ العَرَضِيَّة

☆ ☆ ☆

هكَذا الكونُ ، وكنَّا في مَبانِيهِ خَلِيَّة
وصفاتُ الكلِّ في الجزءِ ولَيْسَتْ بِخَفِيَّة
أو لَسْنا في مَسيرةِ عَوْدٍ للأُصولِ الأَزَلِيَّة
وترابٌ لترابٍ وسناءٌ لِسَنِيَّة ؟!
فإذا شِئْتَ خلوداً سايِرِ الكونَ مَشِيَّة
عُدْ إلى الأَصْلِ وجدِّد عندَه كلَّ قَضِيَّة
عُدْ إلى القرآنِ وجدِّدْ وحدَةَ الشَّوْقِ فَتِيَّة
والْتَزِمْ دأباً نِظامَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة
ولْتَعودي أمَّةَ الإسْلامِ للهِ وفِيَّة

رائدَ الوحدةِ منّي ومنَ الحَفْلِ تحيَّة
بحروفٍ عربيَّة من بلادٍ عربيَّة
من دِمَشْقَ الحرّةِ الفيحاءَ الصَّمَديَّة
وتَحَايا بَرَدَى الْوَحْدَوِيّةُ للپنجاب زكية

إقبال والحبّ

بقلم

الشاعر مصطفى البدوي

إقبال والحبّ

تبــارك العقـل في أسمى مراقيــه ... أهــدى الحقيقــة إقبــالاً ليغنيــه
يغــوص في بحرهــا يسبي لآلئهــا ... مهما تــلاطم واهتــاجت أواذيــه
ويستبيـح عـذاراهـا وقـد فُتنت ... بـه غرامـاً فـأضحت من محـاظيـه
ويحتسي راحهـا من دن عـاصرهـا ... وكل كأس إلى عليــاه يظميــــه
يصحوعلى هـاتف بـالغيب محتجب ... من عـالم الروح والأسرار يـدنيـه
ينضو الستائرعن معنى العروج وعن ... كنـه السمـوات قـاصيـه وعـاصيه
وتبتـدي رحلـة الأفلاك جـامعـة ... شمــل المحبين في أبهى مجــاليـــه
ورافق الشيـخ والرومي مكتشفـاً ... روائـع العـالم العلـوي وخــافيــه
مضى كبرق إلى الـزهرا تـواكبـه ... أرواح نــور إلى أفيــاء بــاريــه
وراح يشكـو إلى الرحمن في ولـه ... عشقاً كنار الغضـا للقلب يصليه
ويـذرف الـدمع حبـاً لا نفـاد لـه ... على الـزمـان فـلا حب يضـاهيه
يجرد الروح من جسم تحي بـــه ... سجناً صفيقاً ظلام الليل يطويـه
والروح جـوهر لا يرقى الفنـاء لـه ... مهما تطـاول وامتــدت أيــاديــه
ونعمــة الله أعطــاهــا خـلائقــه ... قبل الوجـود فكانت من معـانيـه
وخصهـا بعلـوم ليس يـدركهـا ... إلاّه عـــاصيــة عن كل تشبيــه
لســدرة المنتهى تهفــو سرائرهــا ... لصوت رضوان بالترحاب يزجيـه
حيث الخلود وحيث الحب تسبغه ... روح الإلـــه تجلى في محبيــــه
والحب كالفلـك مخــار براكبــه ... لشـاطئ الأمن كي يلقي مراسيــه
أو كالجنـاح إلى الإنسـان يرقَ بـه ... منـاكب الأفـق تسبيـه أعــاليــه
مـا زال إقبــال يعطيــه خــوالجــه ... ومن ينـابيعــه العــذراء يرويــه

حتى تسامى به عن كل فاحشة ... وعن فجور وإسفاف وتمويه
وراح يبذله للكون منتشياً ... شأن المحب بلا أجر يقاضيه
تلك السجية جل الله أسكنها ... قلباً ثمار الرؤى قد أينعت فيه
تمثل الله إحساساً وعاطفة ... ومثل الدين في أعلى معانيه
يا روح إقبال زوري اليوم عالمنا ... ومن سبات الأمس بالعنف هزيه
وأيقظيه فقد يودي السبات به ... وفي مهاوي الدجى والذل يلقيه
وحدثيه عن الماضي وصبوته ... فإن ماضيه ميؤوساً يناديه
موزع العزم والأحقاد تنهشه ... طاوٍ على الحيف تدميه مآسيه
والخصم في أرضه يختال من بطر ... وكل يوم حميم العار يسقيه
أناخ هامته في داره علناً ... وليس من غاضب عن ذاك يثنيه
واغتال نخوته قسراً ومرغها ... وراح يوسعه عسفاً ويؤذيه
يا روح إقبال بثي في عزائمه ... روح الإخاء وبالإقدام مديه
عساه يصحو على نزف الجراح دماً ... ويدحر الغاصب الطاغي ويرديه
آمنت بالعرب أبطالاً قساورة ... وباليماني لاتنبو مواضيه
وبالجهاد الذي أصليت جذوته ... في الشرق والغرب يا إقبال تذكيه
وبالتراث الذي أغنيت عالمنا ... به على الدهر لاترقى رواسيه
ما كنت وقفاً على شعب ولا وطن ... بل كنت للكوْن دانيه وقاصيه
تدعوه أن يترك الأحقاد متجهاً ... للحب من كأسه يروي صواديه
وللسلام فلا حرب تروعه ... ولا نزاعات تطغيه وتشقيه
يعيش حراً كما شاء الإله له ... من كل قيد ومن ظلم يعانيه

اليقظة الإسلامية
في فارسيات إقبال

صادق آئينه وند

صادق آئينه وند

● المستشار الثقافي لسفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق .

اليقظة الإسلامية في فارسيّات إقبال

كان المغفور له العلامة إقبال عظيماً في ذاته كريماً في عطائه ، لقد أعطى بكلتا يديه وبكل لسان ولغة مقتضاه . فحاز شهرة أسرت آذان الناس ، وجذبت أنظارهم إلى آثاره وكتبه القيمة التي كتبها بيده ، ودبّجها بيراعه لهم بلغاتهم الخاصة . أو بعبارة أخرى ، لقد تحالفت الشهرة على إقبال من ثلاثة أركان بثلاث لغات ، فاشتهر في بلاد الغرب بما انعكس من الثقافة الغربية في كتبه التي كتبها لهم بالانجليزية . واشتهر في الشرق ، أولاً في مسقط رأسه ، فكان أمام قومه بما ناجى أرواحهم به من شعره وغذى عقولهم به من فكره بلغتهم الأم . وأخيراً عظم مقامه في إيران لمواكبته للثقافة الفارسية والتعشق بآدابها ولغتها وما قدم لها من آثار فنية رائعة وفكرية عظيمة . وهكذا ، نشاهد أن شهرة إقبال قد ملكت الشرق والغرب وطبقت الخافقين .

ثم إن الحكم على الخالدين موكول للزمان ، فدليل العبقرية استمرارية الذكرى . وما اجتماعنا الليلة ، بل ما اجتماع أمثالنا في الأماكن الأخرى إلا اعتراف بنبوغه وفرصة نتحيّنها لنغترف من بحر عبقريته كؤوساً ، نجدد بها العهد مع عظيم من الخالدين على مسيرة البشرية نحو كمال الإنسانية . إقبال من مَلَكَه عصره وملك عصره ، على حد مامدحه به كبير شعراء إيران (ملك الشعراء بَهار) واعتبره نادرة العصر فقال :

إن العصر الحـــــــــــاضر عصر إقبـــــــــــال
إنـــه الفـــذ الـــذي غطى نـوره على الأعـلام

والحديث عن العظيم يحتاج عظيماً ، وما أنا بذلـك العظيم ، يحتـاج سعـة من الوقت وبسطاً في المكنـة وأنـا والحمـد لله لا وقت لي ولا مكنـة . إلا أن الواقع في مقابل ذلك : إن حرمان القلم من صلوات يرسلها إلى روح إقبـال الحبيب أصعب على النفس من جهد العاجزين في الوفاء . فحسبي أن أشارك الطائفين ولو بلمسة كف على الحجر الأسود . وحسبي أن أحصر كلامي في الجانب الفارسي .

مقام إقبال في إيران :

فأما عن مقام العلامة إقبال في إيران فبالغ الاحترام والتقدير ، وخاصة بعد نجاح الثورة الإسلامية التي لاتترك يـداً كريمـة بـذلت في سبيل الإسلام والنهوض بـالمجتمع الإسـلامي إلا وأحصتهـا وقـدرتهـا . فـإقبـال من وجهـة نظر الثـورة الإسلامية ، من كبـار الـدعـاة الإسلاميين الأحرار . كما أنـه كان ومـا زال في نظر الإيرانيين الأخ العاطف المحتفظ بالروابط المقدسـة والمواثيق الأخويـة والعلاقـات التـاريخيـة بين البـاكستـان وإيران . ثم أولاً وأخيراً هـو واحـد من كبـار شعراء الفارسية المعدودين ، فهو نجم من نجوم سماء العرفان اللامعة الذين نادوا بـالمعرفـة والحريـة والنضـال والجهـاد ، وحـددوا أهـداف الأمـة الإسلاميـة ودفعوا الشعوب للحركة مثل مولوي وحافظ وعراقي والحلاج وسعدي . ممن قوّموا النفس الإنسانية عن طريق تحديد ذاتها وإمكاناتها وأهدافها الوجودية ، وحدائها إلى مقامها المحمود في الدنيا والآخرة .

فأول مجموعة مستقلة من شعره الفـارسي ، مثنوي بعنوان **(أسرار خودي)** يعني (الأسرار الذاتية) حيث اكتشف أسرار نفسـه ووقف على حقـائقهـا . وطبع

هذا المثنوي سنة ١٩٢٠ م (ألف وتسع مئة وعشرين) بمعرفة المستشرق المعروف (نكلسن) .

وتعتبر هذه المجموعة أول أذان كبر لفجر إقبال .

ويجمل بنا هنا أن نشير إلى أن عهد شبه القارة الهندية باللغة الفارسية كتابة ومخاطبة يرجع إلى ألف سنة ، وأن الفارسية ظلت أكثر من سبع مئة سنة لغة رسمية لتلك البلاد ، حتى إذا ماتدخل الاستعمار البريطاني فيها سنة ١٨٣٤ م (ألف وثماني مئة وأربع وثلاثين الميلادية) ، احتلت الإنجليزية مكان الفارسية كلغة رسمية .

تبحّر إقبال في اللغة الفارسية :

وكان كَلَفُ إقبال بالشعر الفارسي أمراً ملحوظاً ، وقد صرح شخصياً في إحدى رسائله بولعه بهذا الشعر ، واجتهاده ومعاناته في سبيل إحراز مكانة فيه . أما أساتذته في الفارسية فمنهم ، السيد مير حسين الرضوي السيالكوتي ، والدكتور سردار صلاح الدين السلجوقي من مشاهير أدباء الأفغان ، وكان صديقاً حميماً لإقبال . وكذلك صديقه الآخر العلامة الشيخ عبد العلي الطهراني الذي كان يقيم مع إقبال في مدينة لاهور . وكان إقبال بالنسبة لاستعمال التراكيب الفارسية بالغ الدقة والحساسية ، مما كان يدفعه إلى الاحتياط والرجوع إلى أساتذة اللغة أمثال : غلام قادر كرامي ، وچودري محمد حسين ، والسيد سليمان الندوي ، للتعرف على طبيعة التراكيب وحساسيتها في الاستعمال . أما أساتذته الإيرانيون فمنهم المرحوم سعيد نفيسي ، والأستاذ محمد محيط الطباطبائي ، اللذان يعتبران أساتذته الإيرانيين ، وقد كانت بينهم علاقات متينة ومكاتبات تاريخية ذات قيمة .

وقد بلغ حب إقبال للفارسية حتى إنه في عروجه الخيالي إلى العوالم العلوية أنطق سكان المريخ باللغة الفارسية :

اين همه خواب است يا افسونكرى ❊ بر لب مريخيان حرف دَرى
عجب أحلم هذا أم أنا مسحور ❊ أن الفارسية تنطق على شفاه أهل المريخ

ويقول :

كرچه هندى در عذوبت شكر است ❊ طرز گُفتار درى شيرين تراست
ولو أن الهندية في حلاوة السكر ❊ إلا أن الفارسية الدرية أحلى

هذا مع ملاحظة أن هذه الأشعار كتبت في الفترة السابقة على الانفصال ، وظفر الباكستان الإسلامية باستقلالها وحريتها .

ثم يعترف على نفسه فيقول : « إن الفارسية أقرب إلى مزاجي وسجيتي » ، بل ويسجل كتابة : « إنه أحياناً ما يتهيأ له أن روح خواجة حافظ تملي عليه وتمازجه » وهذا أمر طبيعي بالنسبة للتفاعل الباطني بين الشعراء .

آثار إقبال الفارسية :

أما آثاره التي كتبها واحتسبت للفارسية ، فهي على قسمين : شعر ونثر ، فالشعر عبارة عن :

١ ـ مثنوي (أسرار خودي) و (رموز بيخودي) = (الأسرار الذاتية) و (الرموز الذاتية) .
٢ ـ (پَيام مشرق) رسالة المشرق كتبها في جوابه على (جوته) في كتابه (الديوان الشرقي) .
٣ ـ (زبور عجم) = زبور العجم .
٤ ـ (جاويد نامه) = الرسالة الخالدة .
٥ ـ (مسافر) = المسافر .
٦ ـ (أرمغان حجاز) = فيوضات الحجاز ، أو الفتوحات الحجازية .

وأما النثر ففي كتابيه الفلسفيين القيمين اللذين وإن كانا قد كتبا أصلاً بالانجليزية إلا أنهما ترجما إلى الفارسية وأصبحا كتابين لإقبال بالفارسية ، واعتبرا ضمن الكتب الفارسية ، وتوارى الأصلان الانجليزيان :

«The Reconstruction of Religious Thought in Islam»

الذي ترجم بعنوان (احياي فكر ديني در إسلام) بمعرفة أحمد آرام ، وقد راج رواجاً عظيماً . والكتاب الآخر :

«The Development of Metaphysics in Persia»

الذي ترجم بعنوان (پيشرفت ما وراي طبيعت در إيران) بمعرفة حسين آريان پور .

والواقع أن العلامة إقبال يحظى في إيران بحياتين ، إحداهما حياة فلسفية باعتباره فيلسوفاً وحكيماً إسلامياً مفكراً ، والأخرى حياة أدبية باعتباره شاعراً ثورياً ومناضلاً عارفاً واعياً .

أفكار إقبال :

ولعل الفرصة قد حانت لنلقي نظرة عابرة نتعرف فيها على أفكار إقبال ولو بصورة إجمالية من خلال أشعاره الفارسية . فنلاحظ أن أفكاره صارخة بضرورة اليقظة واستنهاض الهمم ، للانعتاق على محور يتلخص في أن الحياة هي الحركة ، وأن الموت هو السكون والجمود ، هذه الفكرة التي صورها في شعره بأنواع الصور ورمز لها بأجمل الرموز .

ساحل عمديده گفت گرچه بسي زيستم
آه نه معلوم شد هيج كه من كيستم

موج ز خود رفته اى سخت‌خراميد وگفت

هستم اگر مى روم گرنروم نيستم

قال الساحل الحزين كم عشت طويلاً — لم أعرف حتى الآن من أكـــــون

فانثنى الموج دؤوبـاً عـائـداً يهتف — إن وجودي بذهابي وفنـائي في جمودي

وكما رأينـا ، فإن الشاعر أجرى الحوار بين الساحل والموج ، فرمز للجمـود والتحجر بالساحل ، ورمز للحركة والنهوض بالموج في جيشانه وانطلاقه في حركته الذاتية ، ذاهباً آيباً ، يلطم الصخر ويجري ليعود ليلطمه ليل نهار طول الدهر ، كأنه في أرجوحة ، كلما اشتدت حركتها ازداد حيوية . فهو حي مادام متحركاً . بينما الساحل في أعماق الغفلة ، سكران ذاهل عن نفسه ، لا يعرف نفسه أو ما يجري عليه ، وذلك شأن الشعوب المستكينة المستسلمة ، التي لا تفكر في أن تجيش أو تتحرك أو تعرف نفسها .

وعلى نفس المحور يقول :

ميـارا بـزم بر سـاحـل كـه آنجـا — نـواي زنـــدكاني بـــزم خيز است

بـدريـا غلت وبـا مـوجش در آويـز — حيـــات جـاودان انـــدرستيز است

وإذا كان في البيتين السابقين أعلاه قد بين الفرق بين الحركة والسكون وعرض القضية كاملة ، فإنه من الضروري أن يتخذ الخطوة العملية ، فتراه في هذين البيتين يأمر بالنهوض وينهى عن الاستسلام للركود فيقول :

لا يستغرقنـك محفـل على الســاحـل — فهنـاك جيشـان الحيـاة يحتفـل بـك

عــانـق البحر وصـــارع أمـــواجـــه — فحيـــاة الخــالـــدين في الصراع

ويأخذ الدفع إلى الثورة عنده أشكالاً أخرى جميلة ، منها قوله :

كفتنـد فرود آي ز اوج مـه وپر ويـز — بر خود زن وبـا بحر پر آشوب بيـاميز

فهو يأمر الإنسان أن يفك عقدة تعاليه واكتفائه بحرية خيالية ، بشع فيه غروراً ذاتياً موهوماً ، ويأمره بأن يكون واقعياً ، فيحطم ما يكبله من أغلال الوهم ، وينزل من سمائه ، ويندمج مع البحر الهائج . وفي هذا دعوة للطبقات المتخلفة حتى تنزل لمستوى الكفاح الشعبي ، وتشارك الشعوب في حركتها الناهضة ، يقول لها : كفتند ، أي قالوا . ومن أولئك الذين قالوا ؟

إنهم المجربون ، رواد الحياة الحق ، أمثاله من مشاعل الحرية .

قـالـوا اهبـط من أوج سمائـك من القمر والنجوم
واستجمع نفسك واندمج مع البحر الهائج الصاخب
صراع المـــــوج حيـــــاة أخرى
متلألئة مليئة بالجواهر

ثم يميط اللثام عن السبب في التخلف ، وفساد الأوضاع الطبقية ، وانعدام العدالة الاجتماعية ، والتسلط والتحكم ، مستنهضاً الكادحين للثورة في كثير من المواقف ، نشير إلى إحداها إذ يقول :

خواجه از خون رك مزدور سازد لعل ناب
از جفاى د هخدايان كشت د هقانان خراب
انقلاب ، انقلاب ، اي انقلاب
يخمِّر الأرباب من دم عرق الأجير نبيـذاً أحمر
إن ظلم الأربـاب خرب حيـاة العبيـد
ثورة .. ثورة .. نعم ثورة !

ويستفز الجيل المسلم القائم ، الذي يشبهه بالبرعم حديث التفتح للنهوض والتصدي للدفاع عن بيته المغتصب ، أو على الأصح عن حماه ووطنه السليب ، ويطالبه بأن يفتح آذانه ويسمع هداية الهداة ، ويصحو على تكبير أذان الحرية ،

ويدفئ أفكاره بأنفاس الروحانيين المخلصين للحق ، حتى يتوفر له الوعي بأهدافه ، فينضم إلى رواد القافلة التحريرية وطلائعها الثورية ، ويدحروا كابوس النوم بسهام اليقظة .

اى غنچهء خوابيده چونرگس نگران خيز
كاشانهء مارفت بتاراج غمان خيز
از نالهء مرغ چمن ، ازبانك اذان خيز   از گرمي هنگامهء آتش نفسان خيز
از خواب گران ، خواب گران   خواب گران خيز
ازخواب كران خيز
أيها البرعم النائم انتفض فزعاً   اغتصبت دارنا فانتفض حزناً
انهض على صوت الهداة على تكبير الأذان
على حرارة اتحاد أصحاب الأنفاس القدسية
انتفض من النوم الثقيل ... ، النوم   الثقيل ... انتفض من النوم الثقيل
إيه من النوم الثقيل انتفض

وكأنه يستعمل التكرار طبلاً يدق به على رأس النيام حتى يتيقظوا .

از خواب گران   خواب گران   خواب گران خيز

فإذا سأله ماذا ؟

قال : از خواب گران خيز

من أين ؟! من :

از هِند وسمرقند وعِراق وهمدان خيز

انتفضي ياأمة الإسلام في الهند ، في سمرقند ، في العراق ، في همدان ، في كل مكان ، انتفضي ، تيقظي من نومك الثقيل .

وبعد هذه العمومية ، يعود إلى الإنسان بالذات ، فيطالبه بأن تكون له قوة الموج وعرامة الطوفان ، وأن يثور على الحياة الهامشية ، ويتمرد على الفراغية والركود والعزلة والتحوصل ، وأن يطفر بنفسه من بؤر العفن الذي تنحل فيها نخوته ، ومباءات الترف التي تميع شخصيته ، ويخرج لصيد النمر ، فيضرب خيمته في الجبال والفلوات ، وبذلك يحرّشه للقضاء على عدوه النمر ، بعد أن يتحرر من عوامل التخلف والانهزامية :

جوموج مست خودى باش وسربه طوفان كش
ترا گه گفت كه بنشين وپا بدامان كش
به قصد صيد پلنك از چمن سرابر خيز
بكوه رخت كشا ، خيمه در بيابان كش

يقول :

اسكر سكرة الموج بنفسه ، ولتكن طوفاناً
من قال لك اقعد وتربع ؟!
انهض لصيد النمر وانتفض من بؤر العفن
رابط في الجبل واضرب خيمتك في الصحراء

وهذا القائد العظيم ، لا تغيب عنه صورة الشهداء ولا حقوقهم على الأحياء ، فهم يحتلون خياله دائماً في صورة الشقائق ، ولن يهدأ هذا الدم مالم تتحقق الأماني التي دفعوا لها أرواحهم ، وعليه فدمهم أمانة في ذمة الأحياء . ولهذا فإن الحرب لا يمكن أن تضع أوزارها إلا بعد تحقق النصر ، فالمعمعان على أشده ، والدروع لا زالت في الأيدي ، فكيف يتفق مع العقل أن أوراق الشقائق ما زالت تتقاطر بدماء الشهداء المكفنين بها ، ثم تلقي الدروع ، وتتربع في خيمة الصمت على الساحل النعسان .

إن المسألة مسألة دوامة الماء التي تلفنا وتمنطقنا مسألة التمساح الكامن في الدوامة ، والمبارزة سجال ، والدوامات والتماسيح يقظة تتحين الفرصة للانقضاض عليك . إن تماسيح الاستعمار والاستكبار والاستثمار ، ودوامة الفتنة تترقب بك الدوائر :

لالهء اين چمن آلودهء رنك است ، هنوز
سپرازدست مينيد از كه جنك است هنوز
أي كه آسوده نشين لب ساحل برخيز كه ترا كار به كرد اب ونهنك هنوز

يقول :

شقايق هذا المرح مازالت تنضح بالدم
لاتلق الدرع من يدك مازالت الحرب دائرة
ياخالي البال تتربع على الساحل انهض
فإن الصراع مازال دائراً مع الدوامة والتمساح

هذا ، وتتجلى في شعر إقبال قيم أخلاقية وتربوية عظيمة ، فطالما أشار إلى أسرار الاعتماد على النفس ، والاستفادة من القوى الكامنة في الإنسان المسلم . فيطالبه بأن يطابق بين معرفة الكون ومعرفته بنفسه . بمعنى أن يدرك الإنسان حقيقة عالمه الباطني ، فالغفلة عنه غفلة عن مصدر القوى الهائلة الكامنة فيه الممنوحة له حتى يستخدمها ، هذه الغفلة التي تؤدي إلى التعطل والشلل والفساد . فإقبال لا يقصر نظر الإنسان على السير الآفاقي بل يزاوج بينه وبين السير الأنفسي أيضاً فالمسيرتان تتم أحدهما الأخرى وهما معاً قدما المعرفة وسلم العروج .

ومن أفكاره التربوية العميقة ، نظرته إلى الموت . فالموت في نظره ليس شيئاً مخيفاً . لأن الإنسان لا يفنى . فالمجاهد الحق في نظر إقبال حريص مشوق

إلى لقاء الموت . إنه هو الذي يكمن للموت حتى يظفر به لا الموت ، هو الذي يلاحقه حتى يأخذه مهما هرب منه ، فحياة العارف مسيرة هادفة إلى أن يصل إلى الموت بنفسه ، فمن يحرص على الموت توهب له الحياة ، لأن الموت واسطة انتقال وحركة عالم سفلي إلى عالم علوي . ثم إن الكريم لا يسلب ما وهب . فالموت إذن حياة . أما الموت الحقيقي في نظره ، فهو موت القلب هو عدم اليقين عدم الإيمان بالحياة الأخرى ، والاندفان في قبر الملاذ الدنيوية ومدفن الشهوات الزائلة .

يقول :

بيني جهـــان را خــود را نبيني　　تـا چنـد نـادان غـافـل نشيني
نـورقـديمي شب را بر افروز　　دست كليمي در آستيني
بيرون قـدم نـه ازدور آفـاق　　تـوبيش از يني تـوپيش از يني
از مرك ترسي اي زنده جاويد ؟　　مرك است صيدي تـودر كميني
جاني كه بخشند ديگر نگيرند　　آدم بميرد ازبي يقيني

يقول :

انظر إلى الكون لا تقصر النظر على ذاتك
حتام يا جاهل تجلس غافلاً
نوّر الليل بنور القدم
شاهد يد الكليم (عليه السلام) في جناحك
اعبر بقدمك نطاق المادة
أنت أكبر من هذا أنت أكبر منها
أتخاف الموت أيها الحي الخالد　　ما الموت إلا صيد وأنت له في الكمين
فالروح التي وهبت لا تسترد　　إنما يموت الآدمي من عدم اليقين

ثم تتسع نظرة إقبال إلى الحركة باعتبارها هي الحياة ، إلى المشهد الآدمي

الأول بعد أن تواجد على أثر حركة الخلق ، وقد كان قبل ذا نسياً منسياً . وكانت تلك الحركة المباركة السارية في الوجود أولاً وآخراً ، ولعله ألهم هذه النظرة من الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً قالوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قال إِنّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمونَ ﴾

[البقرة : ٣٠]

فهو يقول في قصيدة بعنوان ميلاد آدم : عندما خلق الله سبحانه وتعالى آدم (عليه السلام) . وقعت الحركة في الكون فصاح العشق : لقد ظهر العاني الفاني في الدين والعشق والمعرفة . واهتز الحسن لأن صاحب النظر الذي يعرف قدر الحسن قد جاء للوجود . واضطربت الفطرة تتعجب ، إذ كيف يخلق فجأة من التراب الهامد المجبور فاقد الإرادة ، موجوداً يمتاز بثلاث صفات ، بالعصامية وقهر النفس والكبرياء .

وفجأة طار الخبر من الفلك إلى سرادق العزة ، أن ياأيها الملائكة المحجبون خلف الأستار ، أيها الكروبيون خذوا حذركم ، فقد ظهر من يهتك الأستار الذي تتضاءل أمامه أقداركم ، الذي يعصي في الأرض .

وفجأة صحا الأمل النائم في أحضان الحياة ، ونفض النوم عن أجفانه ، فرأى عالماً آخر غير الذي كان . وقالت الحياة لنفسها : لقد تمرغت طول حياتي في التراب ، حتى انفتح باب للحركة والصعود من هذا الفلك :

نعره زد عشق كه خونين جكرى پيدا شد

حسن لرزيد كه صاحب نظرى پيدا شد

فطرت آشفت كـه از خـاك جهـان مجبـور
خود كرى خـود شگنى خـود نگرى پيـدا شـد
خبرى رفت زگردون به شبستـان ازل جذارى پردگيان ، پرده درى بيـدا شـد
آرزو بى خبر از خـويش بـه آغـوش حيـات
چشم واكرد وجهـان دگرى پيـدا شـد
زندكى گفت گـه در خـاك تپيـدم همـه عمر
تـا ازين گنبـد ديرينـه درى پيـدا شـد

يقول :

صـاح العشـق : لقـد ظهر الصب العـاني
وارتعـد الحسن لقـد ظهر صـاحب النظر
واستولت الـدهشـة على التراب المقهور ظهر العصـامي قـاهر نفسـه الأنـاني
طـار الخبر من الفلـك إلى سرادق الأزل
حـذار يـا مـلائكـة ظهر من يهتـك حجـابكم
فتـح الأمـل الغـافـل النـائم في حضن الحيـاة
عينـه وجـد عـالمـاً آخر قـد ظهر
وقـالت الحيـاة لقـد تمرغت في التراب عمري
حتى انفتح لي باب الخروج من هـذه القبـة القـديمـة

على أنني قبـل أن أختم كـلامي بشكر السـادة المستمعين على صبرهم وسعـة صدرهم في تحمل مشقـة الاستماع إلى جهـد المقل أتمنى أن يشملني عطفكم في أن أختم بهذه الإشارة أيضاً .

لقد نزل إقبال إلى ميدان الشعر الفـارسي شـاعراً فحلاً وجـارى شعراء إيران وثبت بينهم واحداً منهم إلا أن مولانا جلال الدين الرومي كان أقربهم إليه وآثرهم

عنده ، وكان أثر ملا[1] الرومي عليه بالغاً حد الاعتراف له بذلك الفضل والشواهد والأدلة على هذه الحقيقة وفيرة ، إلا أننا سنعرض على سبيل المثال موقفاً واحداً من تعاطي العلامة إقبال لأفكار العارف الرباني العظيم جلال الدين في إشارته إلى الحكمة فيا روي عن الفيلسوف اليوناني (ديوجين الارثي) ومصباحه . قال جلال الدين :

دى شيخ گرد شهر همى كشت باچراغ
كز ديووودد ملولم وانسانم آرزوست
كفتند يافت مى نشود ، گشته ايم ما
گفت : آنكه يافت مى نمود ، آنم آرزوست

يعني :

قضى الشيخ ليله في الطواف بالمصباح حول المدينة
يقول : مللت الشيطان والوحش ، الإنسان أملي
قالوا لا يعثر عليه فقد بحثنا نحن أيضاً — قال : هذا الذي لا يعثر عليه أملي

فاستقبل إقبال هذا المعنى وقال :

تيروسنان وخنجر وشمشيرم آرزوست — با من مياكه مسلك شبّيرم آرزوست
كفتند : لب ببند واز اسرار مامگو — گفتم كه خير ، نعرة تكبيرم آرزوست

يقول :

أنا أبحث عن السهم والرمح والخنجر والسيف
فلا تصاحبني لأن مسلك الحسين (عليه السلام) أملي
قالوا أغلق فمك ولا تبح بالأسرار
قلت كلاّ : إن صيحة تكبيري هي أملي

(١) ملاّ : عالم . شيخ .

وكما نرى فالبحث هنا لدى الثلاثة عن (الإنسان الكامل) فقد بحث عنه (ديوجين) بالنهار وطوف المدينة بالمصباح فلم يهتد . إلا أن إقبال وجد الإنسان الكامل فيمن يتأسى بالحسين (عليه السلام) ومسلكه في كربلاء ، فهو يقول لمن يؤثر الحياة على الموت في سبيل الحق : لا تصاحبني ، فأنا لا أسمع نصيحتك ، ولن أغلق فمي ، ولن أمتنع عن إباحة الأسرار ، بل إنني سأتزود بالسهم والرمح والخنجر والسيف ، وكل وسائل الحرب الأخرى في سبيل الحق ، فابتعد عني إن كنت تخاف ، فإنني أرى عظمة الفناء في سبيل الحق ، تلك العظمة الحسينية هي كمال الشرف الإنساني .

فليرتفع صوت التكبير عالياً ، ولتعل كلمة الإسلام على أشلائي في أسعد مقاماتها أسوة (بسيّد الشهداء) ، بسبط الرسول ﷺ ، هنا نشاهد أن الحركة قد شملت إقبال نفسه ، وفي هذا ما فيه من صفات القيادة الحق ، والسلام على إقبال في كل وقت ، وطابت ذكراه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

☆ ☆ ☆

□ المصادر والمراجع :

أ ـ باللغة الفارسية .

١ ـ ديوان إقبال لاهوري (تهران ، انتشارات پكاه ١٣٦٢)
٢ ـ إقبال لاهوري وديكوري شعراي فارسي كوى ، الدكتور محمد رياض (إسلام آباد ، مركز تحقيقات فارسي إيران وباكستان ، ١٩٢٧ م) .
٣ ـ كشف الأبيات إقبال ، الدكتور صديق شبلي ـ الدكتور محمد رياض (إسلام آباد ، مركز تحقيقات فارسي إيران وباكستان ، ١٩٧٧ م) .
٤ ـ شعر فارسي دربلوچستان ، الدكتور إنعام الحق كوثر (إسلام آباد ، مركز تحقيقات فارسي إيران وباكستان ، ١٩٧٥ م) .

ب ـ باللغة العربية :

١ ـ فلسفة إقبال ، الشاعر والفيلسوف الباكستاني محمد إقبال ، الدكتور علي حسون (دمشق ، دار السؤال ، ١٩٨٥ م) .

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٨٦/٨/٢٢م

عدد النسخ (٢٠٠٠)

هذا الكتاب تحفة نادرة تضمّ بين صدفتيها خمس عشرة لؤلؤة لا لؤلؤة واحدة :

ثلاث لآلئ منها للتقديم والترحيب واستهلال الاحتفاء بذكرى إقبال .

وأربع لآلئ من شعراء يتغنّون في ذكرى شاعر .

ولؤلؤتين في فلسفة الذات والترابط بين العرفان الذاتي والفلسفة .

ولؤلؤتين في يقظة إقبال الإسلامية وفكره الثوري .

ولؤلؤتين في تحليل سيرته ومكامن العظمة في شخصيته .

ولؤلؤتين في لؤلؤة واحدة هما (المرأة والزمن) في تجديد إقبال .

ولؤلؤة في سجايا الإنسان الكامل ومقوّماته عند إقبال .

أرأيتكم هذا الكتاب : هل يضع فوق صفاء الفكر والنفس شيئا ؟